أحمد بهجت

حوار بين طفل ساذج و... قط مثقف!



أحمد بهجت

حوار بين طفل ساذج و... قط مثقف!

رسوم: وليـد طاهـر

حوار بين طفل ساذج وقط مثقف

تـأليـف: أحمد بـهجت

الطبعة الثانية ٢٠٠٨

رسوم: وليد طاهر

إدارة المشروع: أميرة أبو المجد

© دار الشروق

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٦٤٧/ ٢٠٠٧

I.S.B.N: 978-977-09-2106-7

دار الشروق: ٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر - القاهرة

تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧

dar@shorouk.com

www.shorouk.com

إهـــداء

إلي القط الصغير
الذي كان رسول الله صلي الله عليه وسلم
يمسح علي رأسه وهو في حجر أبي هريرة.

أحمد بهجت

مقدمة

فى حياتى ثلاث قطط رئيسية.. وعشرات القطط الضالة التى شرفت بمعرفتها.. أول قط فى حياتى كان ذكرا أصفر اللون هادئ العينين.. سميته «هَنِى».. على اسم العسل، فقد كان لونه يشبه لون العسل الأصفر الذى يجيء من نحل تغذى على زهور البرتقال.. وما زلت حتى اليوم أعشق العسل إحياء لذكراه.. وإليه يرجع سر حبى واحترامى للقط، فقد علمنى هذا القط كثيرًا من دروس الحياة، وكان صديقا فى السراء والضراء.. وحين خرج يوما ولم يعد.. أدركت معنى الاغتراب فى الدنيا.. وفهمت منذ طفولتى لذع فراق من نحب.

القطة الثانية فى حياتى كانت أنثى ناصعة البياض.. لم أطلق عليها اسما.. فقد كانت تعيش فى جريدة الأهرام القديمة أيام كان مبنى الأهرام فى شارع مظلوم.. وسميتها «قطة الأهرام».

والحقيقة أنها كانت بطباعها الملكية وجمالها الفريد.. شيئا يصعب تسميته.

جسدها كان أبيض وعيناها خضراوان.. فتخيل أنت مساحة بيضاء تطل منها روح خضراء.. وتصور هدوءها حين تجلس ثمانى ساعات على ذراع مقعدي.. لا تتحرك ولا تهز ذيلها لكى تدع لى فرصة التركيز فى الكتابة.. وتشجعنى هى بأن تقرأ قراءة القطط المعتادة:

ـ آرأر رررررررر.

وقد مرضت هذه القطة أثناء سفرى إلى الخارج فى رحلة صحفية، وكانت أكرم من أن تموت إلا على صدرى حين عدت.. وحين سألتها جزعا:

ـ مالك يا روحي؟!

نظرت إليّ نظرة خرساء تكشف عن بئر من الألم الصابر التى غاضت آخر مياهه.. ورأيت فى عينيها الخضراوين عكارة النهاية، وانغرس فى قلبى إحساس بأن كل شيء فى الدنيا صائر إلى الموت.. وبدأت كراهيتى للدنيا من يومها، وأى غفلة أن يحب الإنسان مكانا لا دوام فيه لشيء ولا لحب ولا لأحد.

القطة الثالثة عاشت معى فى البيت خمسة عشر عاما، اسم التدليل الذى نناديها به «لؤلؤة» واسمها الأصلى ليلي.. ولها فى حياتى قصة غريبة.. وهى رمادية اللون فى أجزاء، بيضاء فى أجزاء أخري، تنتمى إلى النوع البلدى وإن كانت تنحدر من عائلة عريقة.. فأمها قطة من قطط الأهرام.. ماتت أمها فى حادث وكان لى شرف احتضانها وهى طفلة لم تزل ترضع.

وإلى جوار هذه القطط الثلاث عرفت مئات من القطط.. وربت على رءوس مئات من القطط، وأكلت مع مئات من القطط، وعرفت معنى الأجر فى الأكباد الرطبة.. وإنى لأحمد الله تعالى حمدا ينبغى لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه، فلولا هذه المخلوقات اللطيفة التى سخرها لى أو سخرنى لها (لست أعرف) لقضيت الجزء الأكبر من حياتى أعانى من الغربة.

أعترف أن هذه القطط كانت تؤنس وجودي.. وكانت تمنحنى لحظات من التأمل والتفكير والسعادة يستحيل على أى ملك أن يشترى مثلها بذهب مملكته.

والقط فى نهاية الأمر مخلوق من مخلوقات الله..وليس فى خلق الله إلا الإعجاز والجلال.

لعل القارئ يريد أن يعرف قصص كل قطة على حدة.. هذا صعب للغاية.. أو لعل القارئ يشك فى أنه يقرأ سطورا لرجل مجنون.. إن العبارة الشائعة عن

القطط أنها حيوانات خائنة وغادرة.

أذكر أني سألت قطتي «لؤلؤة» يوما عن حقيقة هذه العبارة فقالت بلغتها الخاصة:

ـ أطلق جنس الكلاب علينا هذه الشائعة..لا تخون القطط إلا إذا جاعت.. ولا تغدر إلا إذا أحست بالخوف وانعدام الأمان.

لعل شك القارئ في جنون الكاتب يزداد تأكدا.

مهلا يا سيدي.. ولا تكن كزوجتي التي تحتقر القطط لأنها حيوان.. لو أنك مكتهل التجارب مثلي لعرفت أن العبرة في الخلق ليست بكبر حجمه وعظم جرمه، ولا بكونه إنسانا أو حيوانا.

ورب إنسان تنزل به تصرفاته إلى مستوى أقل من مستوى الحجارة.. ورب حيوان صغير يرفعه تواضعه إلى النجوم، والله تبارك وتعالى يوحي إلى النحل، ويسخر هدهدًا ضعيفًا لكشف قضية خطيرة من قضايا الإلحاد، وعبادة الشمس، ويوقف خيط العنكبوت في الصراع أمام حديد السيوف.

لا تحتقر أحدا لأن الله اختار أن يخلقه حيوانا.

تعلم أن تتعلم من خلق الله.

إن الصورة ليست إلا ظلا.

ولا يعلم حقيقة الكنه والمعنى سوى الله.

تواضع في نفسك واقرأ كلماتي عن «القطط».

سأحدثك عن تجربة طفل ساذج مع قط مثقف. وإذا راودك شك في جنوني لأنني أكتب عن القطط، فأنت يا سيدي أشد جنونا لأنك تقرأ ما أكتبه.

أحمد بهجت

فى سن العاشرة.

كانت جميع المخلوقات التى تزيد عنى قليلاً فى الطول، تعاملنى على أننى أقصر وأصغر وأقل.

واشتقت أن أعامل أحدا أقصر منى .. أردت أن أمارس إحساسى بالسيادة.. متصورا أن السيادة هى صدور التصرفات من علو شاهق، وبحثت طويلا عن أقرب الأشياء إلى الأرض، معتقدا أنها ستطيعنى مثلما أطيع من هم أطول منى.

وتحرك على أرض دكان البقال قط أصفر «مبرقش» بالبياض.. انحنيت عليه فتوقف عن السير.. التقطته من الأرض وبدأت قصة صداقتى للقطط.

قلت للقط: سآخذك معى إلى البيت.

قال: أرأرأرررر.

قلت: ما معنى هذا؟!

قال: أقرأ فلا تشغلنى بالحديث حتى أنتهى.

قلت: أحدثك وأنت تقرأ.. أى قلة ذوق!

قال: لا تتصور أنك اشتريتنى لأنك ستأخذنى معك إلى البيت.. أنا قط، ولكننى مخلوق حر تماما.. صغير، ولكننى لست عبدًا لأحد.

نعست عيناه وهو يقول عبارته الأخيرة، وغرس أظافره فى صدرى فأحسست وخز مخالبه الطرية وازددت حنوا عليه.

دخلت به بيت أبى وأمى فصرخت أمي:

ـ ماذا تحمل على صدرك؟

قلت: قط من دكان البقال.

صرخت أمى:

ـ القط أجرب ومريض وغدا يمرض البيت كله.

صرختُ فى أمى أن القط سيبقى ولو انطبقت السماء على الأرض.. ضربت الأرض بأقدامى وازددت تشبثا بالقط.. نزل القلم على وجهى فازددت احتضانا للقط وانهمرت دموعى فوقه..وكان القط التعيس يحمل فى جسده آلافا من ذرات التراب، واختلط الماء بالتراب فأضيف إلى لونه الأصفر لون الطين.. وبدا مظهره كالحا بائسا شديد الخوف.

ولست أعرف أى قوة ينطوى عليها الماء، تراجعت أمى أمام دموعى وسمحت بأن يبيت القط فى البيت حتى الصباح، بشرط أن يستحم.

وافقت على الشرط القاسي، وقاوم القط مقاومة يائسة.. وكلما نزل فوق جسده دش الماء الساخن كان يصرخ ويستنجد بكل قوى الأرض والسماء أن تنقذه.. ولم أفهم سر كراهيته للماء إلا فيما بعد.

ظل القط يرتعش بعد الحمام فترة طويلة، ولففناه فى فوطة قديمة واعتبرت نفسى مسئولا عن تدفئته.

قلت له وأنا أربت على جسده لأهدئ ارتعاشه:

ـ لشدّ ما تكره النظافة.

قال القط: خطأ.. أنتم وحوش.. لا تستحم القطط بالماء والصابون كالآدميين.

قلت له: كيف تستحم القطط إذن؟

قال: بلسانها.. تلحس نفسها بلسانها فيعود جسدها إلى أصله من النظافة.

قلت له: لماذا لم تلحس جسدك وتريحنا من المشقة؟

قال: باطنى شديد البياض ولست فى حاجة إلى نظافة الظاهر.

قلت له: مدهش.. تتكلم مثل الزاهدين!

قال: نحن فى نعمة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف.

قلت له: تتكلم مثل حكيم، ولكننى لا أفهمك!



قال: زاهد أو حكيم، لأكن من أكون، ولكن داخلى طفلا من حقه أن يجوع مثلك.

بدأ يموء معبرا عن جوعه.

شرب ما وضعناه له من اللبن. وبدأ رحلة استكشافه للبيت.

كان يرفع رأسه ويتشمم الأثاث، وينفذ من تحت الأقدام ويسير، يقطع الحجرة، بالعرض ثم يعود إلى قطعها بالطول.. خيل إلىّ أنه يقيس مساحة مملكته الجديدة.. غير أنه اختفى بعد ساعة أو ساعتين من حلول الليل.

عبثا بحثنا عنه تحت الأسرة والكراسى والمناضد.

ناديناه فلم يستجب.. وحين أرهقنا أنفسنا فى البحث عنه تأكدنا أنه تسلل من الباب. وانتقل البحث عنه إلى السلم.. فدكان البقالة الذى ولد فيه.. وحين سقط الليل تماما كان القط قد تبخر مثل سحابة صيف أذابتها الشمس، وأيقنت بينى وبين نفسى أننى لن أراه مرة أخرى.

صعدت إلى فراشي وسحبت علىّ الغطاء وحاولت النوم.

فكرت فى القط الذى اختفى.

قلت لنفسى إن أمى أفزعته، وإن الحمام أرهقه، ولعل بيتنا لم يعجبه، أو لعلنا لم نكرمه بما فيه الكفاية، وتنازعتنى الظنون حتى ثَقُل رأسى وانزلقت مع الغفو.

بعد دقائق أحسست أن شيئا يتنفس فى وجهى.

فتحت عينى فوجدت القط نائما على صدري، وهو يقرأ: أرر أرر أرر.

كتمت فرحتى بالعثور عليه وهمست:

- أين كنت أيها الشقى؟

قال وهو يقرأ: صبرا حتى أنتهى من القراءة.

سألت: ماذا تقرأ؟

ولكنه لم يجب.

طالت قراءته وطال انتظارى له.. وكرهت أن أقاطعه مرة ثانية.. وغلبنى النوم قبل أن أعرف منه أين كان.. أو ماذا كان يقرأ؟

ولست أعرف هل أفشى لى أسراره وأنا نائم، أو ظل على صمته.

استيقظت فى الصباح لأجده ينام على رقبتى.. وقد دفن رأسه تحت ذقنى.. ومد يديه على الجزء الباقى من رقبتى.

أنشأت أعابثه فأمسكت شواربه فاستيقظ غاضبا وبخ فى وجهى.

قالت دهشة عيني: لماذا تبخ فى وجهى.. ألسنا أصدقاء؟!

قالت تكشيرته: لقد أغضبتنى فلا تدعى البراءة.

تساءلت حيرتى الطفلة: لماذا؟ لقد كنت ألعب!

قالت تكشيرته بحسم: هل تستطيع أن تمسك نمرا من شواربه بحجة اللعب؟

ـ طبعا لا.

ـ لماذا تتصور أننى أقل من النمر.. إننى من عائلة النمور.. إن أخى الأكبر هو النمر.

ـ لكنك أصغر.

ـ هل تتصور أن احترام النملة لنفسها أقل من احترام الفيل لنفسه؟ هل تسمح لمن يكبرك فى الحجم أن يضربك لأنك أصغر؟

أقنعنى الشقى الصغير بلمحة واحدة من غضب عينيه.

قلت وأنا أهرش تحت ذقنه: متأسف.. ولن أعود إليها.

قال: هذا أفضل.. الاحترام بين الأصحاب أفضل.

قفز من الفراش إلى الأرض وتمطى وتثاءب وشد جسمه ثم قفز قفزة عالية فى الهواء وانطلق يجرى.. أدهشتنى تصرفاته قليلا. لعله يستعرض رشاقته أمامى..قفزت من الفراش وراءه وبدأنا نلعب.. كنا مُتقاربين فى السن.. لم يزل هو طفلا ولم أزل طفلا.

أى فرحة كانت تتمدد فى صدري؟!

أخيرا صار عندى شيء أملكه.

صارت عندى أملاك تبدأ برأس القط وتنتهى بآخر خصلة من شعر ذيله.

هرعت إلى الجيران.. واستدعيت أصدقائى..وكنت أريهم القط قائلا بفرح:

ـ القط بتاعى.

وتضاربت فيه الآراء.. فمن قائل إنه لطيف، ومن قائل إنه ذكى.. وراحت كلمات الثناء تنهال عليه.. فكنت أستقبلها بالنيابة عنه معتبرًا أنه ملكى.

كان القط يحرك أذنه فى اتجاه الحوار.

ورغم ذلك، فقد ظل وجهه على تعبيره فلم يفصح عن حقيقة مشاعره.

وباستثناء حركة أذنيه.. ظل القط لا مباليا بالحوار.

قلت له ببراءة بعد أن انتهى حفل المجاملات:

ـ أسعدك الثناء عليك؟

لم يرد.

عدت أقول له: ألست سعيدا لأننى أملكك؟

قال القط: ما أشد غرورك.. هل تتصور أنك تملكني؟

قلت له: إننى أحبك.

عاد يقول: هل تتصور أنك تملك من تحبه؟

قلت له: نعم.

قال: خطأ.. أنت مغرور ومخطئ.. لست مملوكا لك. إنما أنا وأنت مماليك لمالك الملك.. ليس لأحد على نفسه سوى حرية الإرادة وحرية التصرف.

قلت له: كنت أتصور أننى غنى لأننى أملكك.

قال القط: لست مسئولا عن تصوراتك الخاطئة. أنت تتصور أنك تملكني.. وهذا يعني أنك ستعاملني كشيء.. وأنت في نفس الوقت تزعم أنك تحبني.

كيف تحب مخلوقا متميز الكيان مستقل الإرادة وتعامله كشيء؟

ألا تحس ببعض التناقض؟.. إن أسرع الطرق لقتل الحب أن تتصور أنك تملك من تحب.. ثم لاحظ شيئا آخر: إنك لم تستأنسني بعد.. كيف تحبني قبل أن تستأنسني؟

قلت: ما معنى أستأنسك؟

قال: معناها أن تجلس في كرسيك، وأجلس أنا في الشمس.. ثم تنظر إليّ، وأنظر إليك.. نتبادل النظر في صمت.. ستنطبع صورتك في عدسة عيني، وسيحدث لك نفس ما يحدث لي.. بعد ذلك سنتبادل كلمات قليلة.

قلت: بعد ذلك أحملك بين ذراعي وأقبلك.. أمطر وجهك بالقبلات.

قال حانقا: ليس في كل وقت.. لا تحب القطط هذا الإفراط في إظهار المشاعر.. لست كلبا لأرقص لك عندما أراك.. لا تحب القطط هذا الغلو في إظهار المشاعر.. أنت تقبلني حتى أحس أنني أكاد أفطس.. هذا ظلم.

قلت: ولكنني أحبك.

قال: لا تزعم أنك تحبني قبل أن تستأنسني.

قلت: حدثني كيف أستأنسك؟

قال: أنت الآن بالنسبة لي مخلوق عادي كبقية الناس.. وبالنسبة لك أنا مجرد قط عادي كبقية القطط.. إذا استأنستني ستصبح بالنسبة لي المخلوق الوحيد من نوعه في العالم.

قلت: وستكون بالنسبة لي القط الوحيد من نوعه في العالم؟

قال: نعم.

قلت: ما هي أهمية ذلك؟

قال: يقول البشر «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» وتقول القطط «لا حب إلا بعد استئناس».

قلت: نريد أن نلعب الآن.. تعب رأسى من الكلام.

قال: كنا نلعب منذ دقائق.

قلت: هل سئمت من اللعب؟

قال: لكل شيء تقاليد.. أجلس الآن فى الشمس وليست بى رغبة إلى اللعب.

قلت: أراك تنشط فى الليل أكثر من النهار!

قال: النهار للنوم والليل لليقظة.

قلت: كيف؟

قال: عينى ترى فى الليل أضعاف ما تراه بالنهار، وما أريد أن أراه حقيقة لا أنظر إليه بعينى.

قلت: لا أفهمك.

قال: استأنسنى أولاً وسوف تفهمنى فيما بعد.

* * *

بعد ثلاثة أسابيع قضاها القط فى بيتنا.. وقع الحادث ذات صباح حزين.

تناولنا الإفطار بعد أن لعبنا بما فيه الكفاية.

شربت الشاى باللبن.. واكتفى هو باللبن.

رحت أتأمله وهو يشرب.. ما أغرب أسلوب القطط فى الشرب.. قلت لنفسى أى مأساة لو كان الإنسان مضطرا أن يمد بوزه فى الطبق ليلعق الماء كالقطط.

حاولت أن أجرب أسلوبه، فدلقت الشاى واللبن فى الطبق وحاولت أن أشرب كالقط؛ فتناثر الشاى خارج الطبق وابتل لسانى فقط ولم أستطع أن أشرب.

قلت للقط: كيف تشرب بهذه الطريقة الغريبة؟

قال: لعلك تحسدنى.

قلت: بل أشفق عليك.. المسألة صعبة قليلا.

قال: راودنى نفس الإحساس وأنا أراك ترفع الكوب بيدك إلى شفتيك وتشرب.. كيف لا تختنق وأنت تدلق الماء فى فمك هكذا؟!

قلت ضاحكا: كدت أختنق حين حاولت الشرب من الطبق.

قال: تعال نجرب مرة ثانية.

قلت: تشرب أنت بطريقتى، وأشرب أنا بطريقتك؟

قال: نعم.

مد يده فى كوبى فاندلق الكوب، وانحنيت على طبقه ورحت ألعق منه، ودخلت أمى فى هذه اللحظة الحاسمة.

لست أعرف الآن هل كان القدر الأعلى يرتب هذه اللحظة ليقع بعدها ما وقع؟ لست أعرف.. سأعرف فيما بعد حين أكبر أن كل شىء فى الوجود لا يقع إلا لحكمة عليا.. حتى أوراق الأشجار التى يجىء عليها الخريف وتنقطع صلتها بالجذع الأم وتتهاوى فى رحلة النهاية.

هذه الأوراق لا تنفصل عن الجذع قبل أن تسأل الله تعالى:

ـ هل أسقط؟

وتتحرك هبة من الهواء وهى تحمل الإذن.. وتتهاوى الورقة.

لا شىء يقع فى ملك الله بغير إذنه.. ولئن بدا للمخلوقات أنها حرة فهى فى حقيقة الأمر حرة.. حرة نعم.. ولكن داخل إطار المعرفة الشاملة التى تعرف من أين وإلى أين ولماذا وكيف.. وإذن فقد كان كل شىء مدبرا ليقع ما وقع للقط.

دخلت أمى فشهدت المنظر.

رأتنى أقلد القط وشاهدَتْه يقلدنى.. كانت أمى فى شبابها سريعة الغضب، تسبقها يدها فى التفكير..انهالت الصفعات على وجهى وهو مدفوس فى طبق القط.. ونال القط جانبا من الحب فانهالت عليه ثلاثة أقلام سريعة.



قفز القط من المائدة إلى الأرض مسرعا نحو باب الخروج.. فى نفس اللحظة صدر الإذن للهواء أن يهب ويغلق الباب.

انغلق الباب على ذيل القط.

اندلعت صرخة القط فى مواء حاد.. تقلصت دموعى وقفزت إلى الباب وفتحته ونسيت أمى تماما.

كان ذيل القط يقطر دما.. وكان صديقى اللطيف الأنيس الصغير يشبه كرة من الألم تدور حول نفسها.

كان يصرخ مثل الكرة الأرضية وهى تدور فى الفضاء.

انحنيت على الأرض ورفعته إلى صدرى.

جسده كله يرتعش.. وجهه يتقلص بألم يبرأ من التصنع.. أدهشنى أن يصدر هذا التعبير المتكامل عن الألم من هذا المخلوق الهش.

كان وجهه يزداد عذوبة كلما تألم.

وكان مواؤه ينغرس فى قلبى مثلما انغرست عصا موسى فى الحجر.

لم تكد عصا موسى تضرب الحجر حتى انهار الصخر وتدفقت من قلبه اثنتا عشرة عينا.. لم يتألم الحجر من ضربة العصا.. ولكنه استحى أن يضربه موسى ولا يبكى.

بدأت أبكى أنا الآخر.

لم أستطع أن ألاحق بكاء الحجر.

أعرف أن عالم الدموع غامض ومحير.

***

حين اتصلت دموعى بموائه.. ونشيجى بارتعاشه وتوحدنا تماما.. انفصل كلانا عن الآخر.. قفز القط من صدرى إلى الأرض واختبأ تحت كرسى قديم.

سأعرف فيما بعد أن الألم يفصل المخلوق عن المخلوق، ويدفع كليهما لأحضان الرحمة الخالقة.. انكفأ القط على نفسه يلعق ذيله الجريح.

انحنيت على الأرض ونظرت إليه فى مكانه ورحت أفكر.. ماذا أفعل؟ كنت أبكى ولا أعرف ماذا أفعل.

صرختُ على أمى قائلا: صبغة يود يا ماما؟!

قالت أمي: حاضر يا حبيبى.

أسرعت تحضر صبغة اليود.

قال القط:ابتعدوا عنى أيها الوحوش.. لا حاجة بى لدوائكم. سألعق جرحى وليكن ما يكون.

سألته باكيا: ما هى أخبار ذيلك.. هل تتألم الآن؟

قال فى مواء طويل متصل: ألم من نوع يخرجنى من ذاتى.

قلت: ماذا أفعل من أجلك؟

قال: صل من أجلى.

قلت: ماذا أقول لله؟

قال: لا تقل شيئا.. هو يعرف.

وهكذا توجهت إلى الله فى سن العاشرة.. كان مركبى ذيل قط مقطوع.. وشراعى ملح تضمه دموع.. وكانت شهنفة الدموع واضطراب الصدر بديلا عن حركة الموج.. ولست أذكر الآن ماذا قلت لله.

إنما أذكر أن القط صرخ يحدثنى قبل أن يختفى تحت المائدة:

ـ لا تبتئس.. الألم طريق إلى الله ونافذة على رحمته.

لم أفهم عبارته الغامضة.

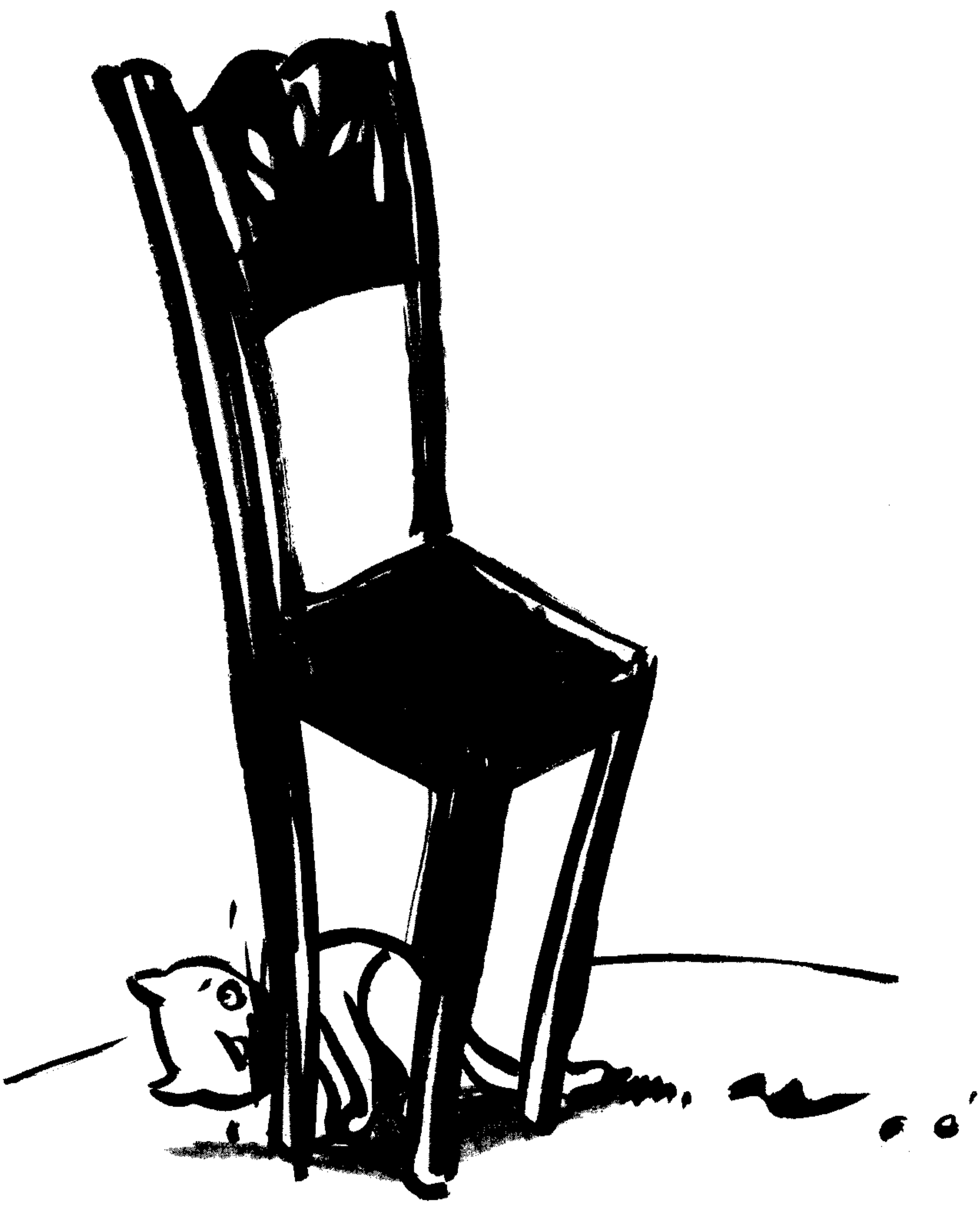
كانت خصلات شعرى شديدة النعومة عميقة السواد، وكان للقط شعر فضى أشيب يميل إلى الصفرة، وقد أوقعنى الفارق بين اللونين فى البحر فلم أفهم، ليس سهلا على الجزء الطفل من سواد الليل أن يفهم حكمة البداية الأولى

للفجر.. لا بد أن يدخل الشعر الأسود دورة الويل ويتحول إلى البياض لكى يفهم.

وسقتنى الأيام.. يوما بعد يوم.. معنى عبارته.

الألم طريق إلى الله ونافذة على رحمته.

سأعرف فيما بعد عندما أحب أن الخمر أحيانا تجىء من العنب، وأحيانا أخرى تجىء من الوجع.



انجرح ذيل القط وطار جزء منه فصرخ، ثم نسجت الخلايا ضمادة أوقفت تدفق النزيف فسكت.

ماذا لو انجرح روح الإنسان جرحا لم يدر كيف ينسج حوله ضمادة؟!

ماذا لو كانت كلمة: «لم أدر» هى نفسها الجرح والسكين، هى الضحية والجاني، هى نفسها قمة الفرح وذروة الألم؟!

سقتنى بيمناها وفيها فلم أزل

يجاذبنى من ذاك أو هذه سكر

ترشفت فاها إذ ترشفت كأسها

فلا والهوى لم أدر أيهما الخمر

هل فهمت يا سيدى القط معنى ما أريد قوله؟ أرجوك أن ترد.. أتوسل إليك أن تجيب.. لم يرد القط.

لم يكن موجودا حين طرحت عليه السؤال.

أسأله الآن سؤالا عن حادث وقع بعد موته بعشرين عاما، كيف أتوقع منه أن يجيب، أيكون الجنون قد صور للحاضر أنه يستطيع أن ينظر فى مرآة الماضى ليرى صورته؟!

لا أعرف.

عرفت كل شيء إلى الحد الذى صرت فيه لا أعرف شيئا.

وشربت كل الأنهار حتى قتلنى العطش.

وأحببت كل الصور وغاب عنى أن أرفع تنهيدة حب واحدة إلى المصور.

من حق الحياة أن أدفع الثمن.

أضاعنى ما أضاع صيادا كان يجرى فى الصحراء وراء ظل لطائر يسبح فى السماء، متصورا أن الظل هو الطائر، وكلما أهوى الصياد بنفسه

على الأرض محاولا إمساك الظل تطايرت الرمال ودخلت فى عينيه فدمعت عيناه.

ويرى الصياد أحد الزاهدين فيرق لحاله، ربما قال فى نفسه:

ـ تُرى.. ما الذى يبكيه هذا الرجل الطيب.. أتراه مثلى عاشقا للحق؟!

لا يعرف الزاهد أن الرجل لا يبكى.

لا يدرك سر الرجل غير ذرات الرمال التى دخلت فى عينيه.. لا يرى الزاهد غير صورة الظاهر، بينما يعاين الحق حقيقة الباطن.

عذرى أننى لم أكن أعرف.. لم أكن أفهم.. لم أكن أدرى..!

عذرى أن شعرى كان أسود وقلبى كان أبيض.

حين انداح العذر وغرق، وتحول الشعر إلى البياض ونضج، كان القلب يستعير من الشعر نضج لونه الأسود.. وعاودت الأرض جريانها فى الفضاء.

***

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾.

كتبها الأستاذ على السبورة والتفت إلىّ وصرخ:

ـ إنت يا حيوان.. قف واشرح معنى الآية.

السؤال موجه إلىّ فى إحدى حصص الدين، عقلى غارق مع القط وقلبى مشغول بذيله، ومدرس الدين زميل لأبي، وأبى مدرس للتاريخ فى نفس المدرسة، وأبى مشهور بالشلاليت التى تقذفك لآخر الفصل، ومدرس الدين متخصص فى الضرب بالمسطرة على أطراف الأصابع المثلجة فى الشتاء، وأبى يطلق علىّ لفظ الحيوان من باب التحقير والامتهان، ومدرس الدين يجد راحته فى الكلمة فيعممها على جميع التلاميذ.

وقفت صامتا.

ـ اشرح.

قلت: قل هو الله أحد يعنى قل هو الله أحد.

قال المدرس: ما شاء الله.. إنت مسطول ولست معنا يا أفندى.

ارتفعت المسطرة إلى أعلى ثم سقطت على يدى فى عز الشتاء.. انتقل الألم من قرار الأصابع فارتد جوابا من الدموع.

أغرقت الدموع وجهي؛ فلم يعرف سيدى المدرس أن هذا خير تفسير للآية.

إن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن ذاته.

تكرما من ذاته.. لتراب خلقه.. أى تفسير يساق أبلغ من الدموع.

عدت إلى البيت مقهورا باكيا، أصابعى ترتعش.

قلت للقط: انضربت بسببك أيها الشقى.

لم يرد.

قلت: كنت أفكر فى ذيلك حين فاجأنى المدرس بالسؤال.

ظل القط صامتا.

أدركت أن طباع القط قد تغيرت بعد حادث ذيله.. صار يقضى معظم أوقاته مختبئا تحت الموائد والكراسي، فقد رغبته فى اللعب، ضاع منه حماسه البرىء للقفز والتنطيط.. استطاع الجرح أن يقلم أظافر شقاوته، وكادت شخصيته تتحول من الطفولة إلى الكهولة فجأة، وخيل إلىّ أنه زهد فى الحياة واللعب. وأزعجنى التحول البادى عليه، خشيت أن تطول فترة زهده فأضيع ولا أجد من يشاركنى اللعب.

انتهزتُ فرصة انتهى القط فيها من طعامه وشرب اللبن.

قلت له وقد جلس يلحس ذيله الجريح، ولم تزل على شواربه بقايا قطرات من اللبن:

ـ أراك مهموما.

قال: أبدا.

قلت: ما سر انطوائك على ذيلك؟

قال: لست منطويا.

سألته فيم يفكر طوال هذه الساعات التى يقضيها وحده.

قال: فى سر ما حدث.

قلت: أمى هى السر.. ضربتك فقفزت مرعوبا فانصفق الباب على ذيلك.

قال: غير صحيح.. أمك سبب ظاهر، بينما السر حكمة خفية.. وأنا أبحث عن السر.

قلت: أى سر؟ الدنيا شتاء بارد، ورياح الغرب تهب، والباب شرقى ولابد أن يوصد أمام رياح الغرب.

نظر القط فى وجهى برعب.. بعدها قفز صارخا واختبأ.

قال وهو يختفى:

ـ أيها الجحيم.. لماذا أتذكر الآن كل شىء؟!

***

خيل إلىّ أننى أسمع صوت بكاء القط المكتوم تحت الفراش.

أسرعت زحفا واندسست تحت الفراش.

قلت له: ماذا أخافك؟

قال: تذكرت كل شيء.. الآن أعرف الجريمة التى أعادتنى إلى الحياة مرتديا جلد قط.

لمع فى ذهنى ما قالته جدتى عن القطط: القطط بسم الله الرحمن الرحيم، فيها قطط وفيها جن وفيها ناس كانوا بيظلموا زمان وانسخطوا قطط.

قلت لجدتي: تيته. ليه القطط عنيها بتبقى حمرا بالليل؟

قالت: ما تبصش فى عنيها يا حبيبى عشان ما تخافش.

قلت: لكن ليه عنيها حمرا؟

قالت: دى نار جواهم.. بسم الله الرحمن الرحيم.

تذكرت كلمات جدتى وأنا أتحدث مع القط.

أرعشنى تيار خوف بارد.

سألته بوجل: أى جريمة أعادتك إلى الحياة مرتديا جلد قط؟

قال وهو يكف عن لحس ذيله ويرخى شواربه:

ـ دعنى فى حالى لو سمحت.. ليس هناك أقسى من مجد تستعيد ذكرياته وأنت فى القاع.

قلت له: ألست صديقك؟!.. حدثنى بكل شيء!

قال: داخلى نار تشتعل، لن أتحدث الآن.

رفع القط رأسه وتشمم الجو.

وهمس: ما هذا.. أشم رائحة سمك تقليه أمك على النار.

جن جنون القط حين وصلت أنفه رائحة السمك.. فى قفزتين كان يخرج من تحت الفراش.. وفى قفزتين كان يتمسح بأقدام أمى فى المطبخ.

فقد هدوءه وزهده حين رأى السمك.

لم أفهم السر فى حبه للسمك.. سأعرف فيما بعد أن القطط جميعا تعشق السمك.

فى بداية الحياة...

حين كانت الأرض عذراء لم تلمسها أقدام خاطئ من البشر.

كان البخار يتصاعد من البحار وينعقد سحابا فى الجو.. وكانت القطط تقف على شاطئ البحر.

كلما ألقت الأمواج بإحدى الأسماك الطائشة التى اقتربت كثيرا من الشاطئ، أبرزت القطط مخالبها ومزقتها والتهمتها.

خرجت أمى من المطبخ.. غابت لحظتين وعادت.

فى اللحظة التى غابت فيها عاينت مشهدا شديد الغرابة.

قفز القط من الأرض إلى رخامة المطبخ ومد يده إلى الصينية التى يقلى فيها السمك وغرس أصابعه فى السمكة وعاد طائرا بنفس الرشاقة إلى الأرض. وفى يده اليمنى سمكة نصفها مقلى ونصفها نىء.. تلاشى تحت المائدة فى نفس اللحظة التى كانت أمى تدخل فيها المطبخ.

أعترف أن القط كان أسرع من البرق، وأرق من نسيم ليلة خريفية ساحرة.. شيء ما فى تصرفاته كان يتسم بالرشاقة الخرافية.. مثل أعظم راقصى الباليه بدأ حركته وأنهاها.. دخلت أمى ففوجئت أن الزيت يغلى على النار وحده بغير السمكة.

صرخت تسألنى:

ـ السمكة فين؟

قلت: ما اعرفش.

فى نفس اللحظة.. سمعنا صوت عظام السمكة وهى تقرقش فى فمه.. انحنت أمى تحت المائدة وصرخت:

ـ القط سرق !السمكة.

فزع القط ولكنه قاوم ذعره واستمر يأكل.. كان الجزء الناضج فيها ساخنا فكان يأكل نصفها النىء ويضرب النصف الناضج بيده ضربات سريعة لكى يبرد.. اغتاظت أمى لأن القط لا يعبأ بها، وإنما هو مستمر فى السرقة.. خلعت شبشبها ومدته تحت المائدة وسمعنا صوت اصطدام.. خرج القط بعده يجرى وهو يحمل نصف السمكة فى فمه.

ضحكت من إصراره على التهام السمكة، وجن جنون والدتى لأنه لم يسقط من طوله رعبًا منها.. وبدأت المطاردة بينه وبينها فى الشقة.

كانت أمى تطلق صرخات وحشية كالتى تطلقها القبائل البدائية قاصدة منها أن توقع الرعب فى قلوب أعدائها، وكان صراخها يزداد غيظا:

ـ القط حيزفر البيت كله سمك.. يا دى النهار الأسود.

أغرقت فى الضحك وأنا أتتبع المطاردة.. القط فى المقدمة وهو يجرى وفى فمه السمكة.. وأمى وراءه وفى يدها المقشة بعد أن قذفته بكل النعال الموجودة فى البيت، وأنا بعدهما مراقب محايد.. وشقيقتى سميحة تتبعنا.



حين اشتدت المطاردة وأوجعه الضرب سقطت السمكة من فمه.. وقارن القط فى ذهنه بين احتمالات الفوز بها والنجاة معا، فلما رأى الفوز والنجاة مستحيلين آثر النجاة على الفوز فتخلى عن السمكة ونجا بجلده واختبأ.

رفعت أمى بقية السمكة من الأرض وبدأت بحثها عنه.. مثل فص من الملح ذاب القط تماما.

ـ الحرامى.. يا انا يا هوه فى البيت.. بس إيدى تقع عليه.

كان هذا هو التصريح الرسمى الذى أصدرته أمى ونحن نجلس إلى مائدة العشاء.. وتشاءمت من التصريح رغم رغبتى فى الضحك.

إن مشهد القط وهو يقاوم لآخر قطعة من السمك.. وحسرة عينيه وهو يفلت فريسته من فمه لينجو بجلده.

كان هذا التناقض بين المشهدين مثيرا للضحك الدامع.

ـ إنت مخببه فين يا ولد؟

السؤال الأخير موجه إلىّ.

أنكرت أنى أخبئ القط أو أعرف مكانه.

لم ينفعنى الإنكار رغم أننى كنت صادقا فى نصف ما أقول كاذبا فى النصف الآخر.

ضربتنى أمى عقابا على جريمة ارتكبها القط.. أليس القط ملكي، ألست مسئولا عنه.. لقد ارتكب جريمته واختفي، وإذن يوقع العقاب على أقرب أقاربه الذى هو أنا، وهكذا، تصرفت أمى مثل سلطات البغى فى الدول الطاغية، وأهدرت شخصية العقوبة وقانونيتها، وعبثا حاولت أمى أن تعرف منى أين اختبأ القط.. أغلقت فمى على السر ورفضت أن أعترف.. وزادنى التعذيب إصرارا على الكتمان والعناد.. لم أكن فى حاجة لتخبئته.. وإن كنت أعرف أين اختبأ.

فى كنب الزمن القديم، حين كان الخشب بريئا لا يعرف تصاريح القطاع العام وألاعيب السوق السوداء والبيضاء، كان النجارون يسبغون وضوءهم ويصلون ويسخون فى الصناعة، وكان من تقاليد الكنب البلدى أن تزود جوانب الكنبة من الداخل برفوف صغيرة تزيد من متانة الصنعة.

وإذن يختبئ القط فى رف من هذه الرفوف، ويستطيع من ينظر تحت الكنبة أن يخطئ رؤية القط، على حين يراه القط.

كنت واثقا أن القط يختبئ فى هذه البقعة الإستراتيجية.. وإذن أحتمل الضرب.

جاءت جدتى على صوت صرخاتى فأزاحت أمى بخشونة ومدت يدها فاختطفتنى منها.

بعد لحظات كنت أختبئ فى حضنها.. الدنيا كلها عدو باستثناء حضن جدتى.. هنالك عرفت مذاق الأمان الحقيقى والسلام، وهناك لا يجرؤ مخلوق أن يقترب منى أو يمس شعرة من رأسى.

فى صدرها كان يموت الخوف ويمتلئ القلب بالسكينة.

كنت أصرخ من الضرب، فلما احتضننى أكثر إنسان أحببته فى حياتى بكيت، ولم يكن بكائى ألمًا من الضرب، وإنما تعطشًا إلى الرحمة.

شخطت جدتى فى أمى شخطة سريعة.. ورفعت صوتها باحتجاج قاس بأنها ستترك البيت لو ضربنى بعد ذلك أحد.. وتراجع البيت كله أمام تهديدها الصارم.

- عايز أنام فى سريرك يا تيته.

- «تعالى يا حبيبى».

يدور رأسى اليوم حين أستعيد شحنة الصدق فى العبارة..

«تعال يا حبيبى».

***

بعد أن كبرت، سمعت الكلمة عشرات المرات، وعبثا بحثت عن مذاق التجرد القديم الذى تضمه كلمات جدتى فى كلمات النساء.. ما من مرة واحدة عثرت.

أبدًا لم تعطنى امرأة ما أعطته جدتى من الحب.

كان فعلها منزها عن العلل والأغراض والحاجة.. كان فعلها مثل زهرة تمنح عطرها لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئا غير أن تمنح عطرها.

حين تقول لى زوجتى اليوم تعال يا حبيبى أفهم أن لديها مشروعا لشراء شيء وتريد منى نقودا.. وحين تقول لى أمى تعال يا حبيبى أعرف أن لديها شكوى من أبى وتريد منى موقفا محددا، وحين تقول لى ابنتى تعال يا حبيبى أتأكد أنها شاهدت لعبة جديدة وتريد أن تشتريها.. أما جدتى فهى تقول تعال يا حبيبي، ولا تريد من الكلمة غير الكلمة.. لا تريد بكلمتها أن تشير إلى شيء.. كانت جدتى هى الكلمة ذاتها.. كلمة الحب ذاته.

«أفسدتك أمك بالتدليل».

كلمة سمعتها من زوجتى.

أبدًا لم أكن أكشف السر.. لم أقل إن أمى لم تفسدنى.. لم أقل إن جدتى هى المسئولة عن كبريائى مع النساء.. بعد الحب الذى أعطته لى لم يعد ممكنا أن أحزن على حب امرأة.

بعد أن ماتت جدتى ماتت ـ داخلى كل فرحة يمكن أن تعطيها لى امرأة مخلصة.

عرفت الكثير وعشقت صورا كثيرة، ولكننى كنت دائم البحث عن هذه البراءة القديمة التى كانت تقف على طرفى نقيض بين طفولتى وشيخوختها، ورغم ذلك تصل الجسور بين البراءتين.

لم تكن جدتى لطيفة أو رقيقة مع الجميع، حتى ليمكن القول إن هذه طبيعتها الثانية، على العكس من ذلك.. كانت صارمة إلى الحد الذى لا يجروً

فيه مخلوق على مناقشتها.. وكانت تستمد صرامتها من عدالة حاسمة وعقل مسيطر، وكم راقبت تصرفاتها مع أبنائها وعائلتها، حين صار أحد أبنائها وزيرا شغلته أعباء العمل فنسى أن يزورها يوم الجمعة كما كان يفعل، وكان هذا الابن هو الذى ينفق عليها.. وطلبته يوم السبت وأسمعته كلمات عنيفة جافية.

وكان كل ما استطاع أن يقوله لها:

- يا نينة يكون حد بيسمعك!

ولم يعجبها رده فأغلقت فى وجهه سماعة التليفون.. وجاءها باكيًا يقبل يديها.

كيف لا أحبها وهى تختصنى من بين العالمين جميعا بالمحبة.

إن أعظم الرجال فى عائلتنا ينحنى على يديها لتقبيلها، وهى تنحنى على رأسى لتقبيله.

لم تكن لدى أى فرصة لمقاومة حبها.

فى سنواتها الأخيرة حجت إلى بيت الله الحرام ووضعت يدها على شباك النبى صلى الله عليه وسلم، وفتحت لها الكعبة فدخلتها وعبثا سألتها:

- شفتى إيه يا تيته جوه الكعبة؟

وكانت تغمغم: ما اقدرش اقول لك شفت إيه يا حبيبى. ده سر.

كل ما أذاعته من السر هذه المسبحة الطويلة التى صنعت من خشب الصندل. وهذا الترديد المستمر لسورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾.

- كم مرة ستقولينها يا تيته؟

- مائة ألف مرة.

ـ لماذا؟

لا جواب غير الصمت ولمعة فى العينين: ﴿ وقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾.

أذكر يوم ماتت جدتى.

كان عمرى يقترب من العشرين.

ولم أكن قد رأيت الله بعد.

لم تكن تشكو شيئا ثم مرضت قبل رحيلها بثلاثة أيام.. امتلأ البيت بالناس وانكفأ شعاع القمر فى الشرفة وأجهشت حجارة البيت بالبكاء.

لم أهضم ما حدث.

جلست فى غرفتها على الأرض.

عينى على الفراش الساكن وغصة الزجاج فى حلقي، وثمة إحساس مسيطر بأننى أقف على سطح الكرة الأرضية وهى تدور بى. وحدى.

مات الهواء والتراب والنار والماء.

مات الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

بقيت وحدى تماما على سطح الأرض وهى تدور.

راحت الأرض تدور.

انتقل الدوار إلى عقلى فأنشأ يدور، ثم توحد عقلى مع الأرض فلم أميز بينهما ودار كل شيء. حين خلت الأرض وخلا عقلى من الناس والكائنات وصور الغير.

حين لم يعد هناك غيرية الغير، ولا غيرية الذات.

عندئذ رأيت الله.

فى طوفان الدموع جاءت سفينة هائلة من خشب الصندل، انقسمت كل حبة من حبات المسبحة إلى آلاف الأشجار العظيمة، والتحمت معا لتصنع سفينة، كل حرف من حروف سورة الإخلاص كان عشرات الحجرات التى تمتلئ بسكينة الأمن ودفء العطر وبرد السلام.. وفاض التنور وصعدت السفينة أعلى قمم الأمواج، وصعدت جدتى إلى حجرتها فى سورة الإخلاص.. ورأيت على الأمواج رحمة الله وهى تضحك لجدتى.

وبدأت رحلة حبى إلى الله من يومها.

* * *

بعد أن نام البيت كله.

نهضت من سرير جدتى وسرت على أطراف أصابعى ومددت يدى تحت الكنبة، وأخرجت القط.

شممت رائحة فمه فإذا هى بحر من السمك.

قلت له هامسا: شىء مؤسف.

قال: فعلا.

قلت له: أقصد رائحتك.. زفارة السمك.

قال: أنت طفل لا تعرف أن لكل مخلوق عطره الخاص، وزفارة السمك هى عطر البحر.

قلت: ستقتلك أمى لو عثرت عليك.

قال: سوف أحتفظ برأيى فى أمك حرصا على مشاعرك.

قلت: السيدة معذورة.

قال: تستخسر فىّ قطعة من السمك لا راحت ولا جاءت.. افرض إن نفسى تاقت للسمك.. ما هى الجريمة؟

قلت: الجريمة واضحة.

قال: يا سلام!

قلت: رأيتك تسرق بعينى.

قال: تضربنى أمك بالشبشب.. أنا!

قلت: أنت لص.

قال هذا ما تراه بعينيك.. والحقيقة ليست ما تراه بعينيك.

قلت له: لماذا تعود إلى الألغاز؟

قال: بل أعود إلى الماضى فأحكى لك سرًا من أسرار القطط..أين خبأت أمك السمك؟

قلت: فى دولاب المطبخ.. والدولاب مغلق.. والمفتاح تحت رأسها.

قال: آه.. لا أمل إذن فى السمك؟!

قلت: نعم.

قال القط: ما دمنا سننام بجوعنا فلا بأس أن أحكى لك قصتى.

فى قديم الزمان، وسالف العصر والأوان.. كان القط الذى يجلس أمامك الآن وقد طار نصف ذيله وانضرب لأنه حاول أكل قطعة من السمك.. كان هذا القط الضعيف البائس أميرا حاكما فى عصر من عصور التناسخ القديمة.

قلت: لا أفهمك.

قال: لم تزل طفلا ولهذا لا تفهم.. استمع إلى الحكاية صامتا مثلما تستمع لحكايات جدتك.. قبل أن أرتدى جلد القطط الحيوانى، كنت أرتدى جلد الآدميين..

كان اسمى الأمير «رصنالا»، وكنت حاكمًا مطلقًا لمدينة السرور.. وكنت، ألقى بأعدائى السياسيين إلى أسماك القرش لتلتهمهم، فتأمل تعاستى إذ أنقلب قطا وتضربنى أمك بالشبشب لأننى أحاول التهام قطعة من السمك!

أى انتقام للعدالة الإلهية!

قلت: يزداد حديثك غموضا.. ما الذى تعنيه بالتناسخ؟

قال: تولد إنسانا فى عصر، وقطا فى عصر آخر، وحمارا فى عصر ثالث.

قلت: لماذا؟

قال: تكفيرا عن ذنوبك أو انتقاما منها.. الأمر سيان.

قلت: تريد أن تقنعنى أنك كنت أميرًا.

قال: كنت أميرًا ظالما.

قلت: لا أصدقك.. أنت تلعب بى مستغلا طفولتى.

قال: كان عمر الخيام أستاذًا فى مدرسة نيسابور، فشاهد مع تلاميذه حمارًا كان ينقل الطوب لترميم المدرسة. حرن الحمار ووقف بالباب فلم يدخل.

تبسم الخيام ودنا من الحمار وأنشد فى أذنه الطويلة هذه الرباعية على البديهة.

قال الخيام للحمار:

أيها الذاهب ها قد عدت حيوانا أضلا.. ويك
ضاع اسمك من بين الأسامى واضمحلا
إن أظفارك صارت حافرا مجتمعا
وغدت لحيتك الشمطاء فى عجزك ذيلا

لم يكد الخيام ينتهي من إنشاده حتى دخل الحمار المدرسة بعد حرونه.. فلما سئل الخيام عن ذلك قال لهم إن هذا الحمار كان أستاذا بهذه المدرسة، فلما تقمصت روحه جسم هذا الحمار، لم يستطع أن يدخل، غير أنه لما وجد أصحابه قد عرفوه لم يجد مناصًا من الدخول.

قلت: رباعية حمارية حقا.. هل أنت واثق أن قائلها هو الخيام؟

قال: لست واثقا من شيء.. سمعتهم يقولون ذلك.

قلت: لكنه يسخر من البشر ويتهكم على الأستاذية.

قال: كل شيء جائز.. ألا تريد أن تسمع بقية قصتي.

قلت: بالتأكيد.

قال: أين كنا؟..آه تذكرت الآن.

قلت: معذرة لأنني أقاطعك.. كيف عرفت حكاية الخيام والحمار؟

قال: أنا قط مثقف.

قلت: لعلك تقصد القول أنك كنت أميرًا مثقفًا.

لا تقنعني أنك عرفت حكاية الخيام والحمار وأنت قط.. عرفتها طبعًا وأنت أمير.

قال: بل عرفتها وأنا قط.

كنت أميرًا جاهلا فصرت قطًا مثقفًا.. أحد أمرين.. إما أن تكون مثقفًا فى حياتك وتعرف أسرار الكون، وإما أن تموت جاهلا فتستيقظ وتدخل الجحيم لتكملة تعليمك وثقافتك، وفى الجحيم تعرف كل شيء بعد أن تصير المعرفة بلا قيمة.. ليس فى الجحيم كله واحد مثقف حقا. الجحيم يمتلئ بأنصاف المثقفين.. أين كنا فى الحكاية.. كثرة أسئلتك الساذجة تكاد تنسيني الموضوع.

قلت: كنا فى مدينة «السرور» مدينتك التى حكمتها.

قال:حين وليت عليها كان اسمها مدينة السرور، بعد أن حكمتها صار اسمها مدينة «الأحزان».. لم أكن أقصد هذه النتيجة ابتداء، إنما تصورت أن

عقلى وحده يكفى لحكم المدينة.. وحكمت بعقلى المنفرد كل عقول الرجال والنساء فى المدينة.

جففت دون أن أدرى روح الإنسان فى الإنسان، وأيقظت دون أن أدرى روح الأحزان فى الجماد.

كانت أياما تعيسة.

***

أنتم أقوى مدن الأرض.

أعظم مدن الأرض.

أحسن مدن الأرض.

أغنى مدن الأرض.

أعرق مدن الأرض.

وإذن أنا أعظم أمراء الأرض.

كان الناس يسكرون كعادتهم بالخمر الرديئة، وكانت كلماتى تلعب برءوسهم كالخمر الرديئة.. تشعل الحماس وتثير الدوار وتوحى بالقوة، وإن حطمت داخل الإنسان إرادته.. ماذا أفعل.. كنت حاكمًا لا يعرف الله.. وحين ينسى الإنسان الله فليست هناك جريمة يتردد فيها أو خطيئة يرتجف أمامها.. يرتجف الشيطان نفسه حين يلتقى بإنسان لا يؤمن بالله.

رعبا يرتجف.

ازددت التصاقا بجدتى ونظرت فى قاع عينى القط فرأيت نارا ثابتة حمراء.

ارتعشت وأنا أسأله:

- داخل عينيك نار؟

قال: النار فى قلبى وإن عكستها نافذة العين.

قلت: أحس بالخوف وأريد أن أصرخ.

قال: انس ما قلته لك.. لقد كنت أمزح معك.. أنا قط لا أقل ولا أكثر.

قلت له: وحكاية تناسخ الأرواح؟

قال: خرافة لا تسكن غير ذهن محدود.

قلت: لما كنت تكذب؟

قال: كنت أحكى لك حدوتة.. نم يا صغيرى نم.. ألا تؤمن بالخيال.. نم.

أغلقت عينى وأطعت القط.

بدأ القط يقرأ: أرر.. أرر.. أرررر.

لم أكن أعرف ماذا يقرأ... لم أكن أعرف أيامها أنه يقوم بواجبه اليومى من تسبيح لله.

هناك أنواع عديدة من الحيوان تقوم بعديد من التصرفات التى لا يمكن تفسيرها علميًا، ولا يمكن إرجاعها لأسباب مفهومة.

خذ قراءة القطط مثلا.. هذا الور الذى تقوم به القطط عندما يمسح على ظهرها أحد.. أو تستشعر حنانًا زائدًا من أحد.. هذا الور سر من أسرار القطط.. حين تقدمت بى السن.. سألت أطباء بيطريين وعلماء فى الحيوان عن هذا الور فقيل لي:

ـ هو صوت تصدره القطط.

قلت: أنتم تفسرون الظاهرة بالظاهرة.. أعرف أنه صوت تصدره القطط.

أسألكم لماذا تصدر القطط هذا الصوت؟.. ماذا تريد بهذا الصوت؟

قالوا: لا نعرف.

خذ تصرفات مالك الحزين مثلا.. هذا الطائر الجميل الذى يجىء عند الغروب، ويقف على ساق واحدة.. ويظل ساعات واقفا هكذا.. وقد رفع منقاره إلى أعلى.. لماذا.. لا أحد يدرى.

خذ مثلا هذا الصوت الذى يصدره الحمام عندما يجىء الفجر.. هذا الصوت الغريب الجميل الرائق الذى يتجاوز طلب الطعام أو الشراب.

أى شىء يكون؟

خذ مثلا سر أشجار البنفسج التى تمنح أزكى عطرها فى الفجر.

يقف العلم حائرا ؟أمام هذه الظواهر.. يرصدها ويسجلها ولكن لا يقدم تفسيره لها.. ليس لها تفسير غير قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

أحيانا أقرأ هذه الآية الكريمة وأفكر.

أتكون هذه الأصوات الغامضة صلاة ترفعها المخلوقات لله؟.. أو تكون تسبيحا لا يعلمه غير الله؟.. أى شىء تكون إن لم تكن كذلك؟.. إن أى تفكير سليم الفؤاد يقود مباشرة لهذه النتيجة.

ولا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من التفكر والدهشة حين يصل لهذه النتيجة.

وقديما لم أكن أفكر فى طفولتي، كنت أشعر فقط.. كنت أحس فحسب .

كلما وضعت يدى على رأس القط وبدأت أملس على جسده.. سمعت هذا الصوت.

إذا توقفت ظل هو يقرأ فترة.. بعدها يتوقف. إذا عدت إلى هدهدته عاد إلى القراءة.. تصورت أنه يصلى، وقامت فى ذهنى علاقة بين كمية الرحمة التى تتلقاها المخلوقات فى الأرض.. وكمية الصلاة التى ترفعها المخلوقات لله.

كلما زادت الرحمة فى الأرض زادت كمية القراءة والصلاة.

تأملت كثيرا فى انطباق هذا القانون على كثير من المخلوقات ولاحظت أنه لا ينكسر أبدا.. وأدركت يومها سرا من أسرار الظلم فى الأرض.

كلما رفع أحد الرجال قدمه وضرب قطا أو كلبا نقصت كمية القراءة والصلاة فى الأرض.. وكلما وقع ظلم على أحد البشر نقصت كمية القراءة والصلاة فى الأرض.. ولما كانت الأرض تحتاج إلى نسبة معينة من النقاء لكى يكون لدورانها معنى فإن تصرفات البشر تجعل دوران الأرض أحيانا بلا معنى.

وتجعل دوران الأرض أحيانا يثير الدوار والغثيان.

استسلم القط للنعاس بعد صلاة طويلة.

واستسلمت معه للغفو.

تركت نفسى لأول موجة من موجات النعاس.

* * *

يشبه النوم بحرا إحدى جزره هى الموت، وشاطئه الأخير هو البعث والعالم الآخر.. يرقد الإنسان على ظهره ويطفئ نور العالم الخارجى بإغلاق جفونه، انقطع التيار الكهربائى عن المروحة فظلت دائرة ثم أبطأت ثم هدأ دورانها ثم ازداد البطء حتى توقفت.. يغمض الإنسان عينيه فكأنما يقطع تيار الحياة عن عقله.. تهدأ ضربات القلب ويتسلل إلى العقل شىء غامض.

فى البداية يعبر المرء موجا أخضر فى مياه البحر.. لم يزل الموج يشف عن قاعه القريب من شاطئ اليقظة.

أى خبطة باب أو شباك تستطيع إيقاظ النائم.

تبطئ ضربات القلب أكثر، ويقع شيء غير مفهوم للعقل فيبطئ نهر الأفكار من تدفقه.. يعبر المرء موجا أزرق.. نبتعد عن الشاطئ أكثر وتنسدل على العقل ستارة تمنع العالم الخارجى أن ينفذ إليه.

بعد ساعة من النوم تبدأ المياه الغريقة.

يتقلب المرء ويهدهده موج داكن الزرقة.

مثل تنفس البحر يتنفس الإنسان.. تنساب فى الأفق القريب أشرعة الأحلام البيضاء.. أنت سجين فإذا أحلامك تقدم إليك حصانا أبيض تجرى به فوق عشب الحرية.. أو تعيس أنت فتهبك الأحلام لحظات من البكاء الذى يضم من مياه البحر ملح التفاؤل.. أو شحاذ أنا فأشهدنى فى الحلم أميرا وسيدا.. أو تريد هذا القمر وتبكى من أجله فترى القمر فى الحلم يبكى عند أقدامك.

ماذا لو رقّ قلبك للقمر.. تعرف تأثير القمر فى البحر.. هو المسئول عن مده وجزره.. كل آهات القمر تؤثر فى تنهدات البحر.

تزداد توغلا فى البحر.

تدخل المياه الداكنة.. موج البحر يبدل ثيابه مثل امرأة خرافية الحسن.. بعد ثوب الصباح الأخضر وثوب الظهيرة الأزرق وثوب المساء الرمادى الموشى بالأحمر يجيء ثوب السهرة. ثوب الليل الأسود. وذلك لون بلا لون.

يهدأ الهياج الجامح للموج ويتحول الماء إلى زيت.

هذه مياه النوم العميقة.. لا أحلام هنا.

قبل أن أصل إلى مياه النوم الغريقة رأيت حلما.

شيخ كبير يجلس فى جزيرة صغيرة.

تحت أقدامه قط يشبه القط النائم على صدرى.

كنت أعرف القط من لونه وتعبير عينيه وصورتى التى أراها منعكسة فى القاع الذهبى لعينيه.

عرفت فيه صديقى القط.

أسرعت نحو الشيخ قائلا:

ـ هذا القط ملكى.

تبسم الشيخ وقال:

ـ تفضل بالجلوس أولا وحدثنا كيف كانت رحلتك؟

قلت له: ما الذى جاء بهذا القط إلى البحر؟

قال: جاء أصلا من البر ويزور البحر.. القط يحلم بجزيرة حولها بحر من السمك.

قلت: هل أكل؟

قال: يحلم الآن أنه يأكل.

قلت: مدهش!!

قال: بل طبيعى للغاية.

سألت: هل حدثك القط أنه كان أميرًا فى عصر من عصور التناسخ القديمة؟

قلت: حدثنى بذلك.

سألنى الشيخ: هل صدقته؟

قلت: صدقته فى البداية، ثم اعترف لى أنه كان يكذب.

قال الشيخ: لقد صدقك حين اعترف بكذبه.

لقد انتهز فرصة طفولتك وراح يسرح بك.. مسألة التناسخ مسألة مضحكة.. روح واحدة تحل فى جسد إنسان، ثم جسد كلب ثم جسد حمار ثم جسد نملة.. لماذا..؟!

هل هناك أزمة أرواح عند الخالق سبحانه وتعالى؟!

هل تتصور أن الله خلق أرواحا محدودة وأجسادا عديدة ثم راح ـ حلا

للإشكال ـ يجعلها تحل فى الأجساد..التناسخ تصور بشرى يقصر عن إدراك غنى الله سبحانه وتعالي، هو فكرة فنية تسربت إلى العقائد السليمة من تصورات الوثنيين.

قلت: لقد أرحتنى كثيرا.

قال: حمدًا لله.

تذكرت شيئًا فقلت للشيخ: لماذا خلق الله القطط؟

قال: لماذا لا تسأل القط عندما يستيقظ.

ذابت الجزيرة فى البحر وذاب الشيخ والقط ودخلت مياه النوم الغريقة التى تخلو من الأحلام.

✱ ✱ ✱

مت حتى الصباح ثم بعثت.

نسيت أننى أريد أن أسأل القط لماذا خلقه الله؟

لم يترك لى فرصة للحوار معه طيلة اليوم.

كان شبه مجنون من الجوع.

أعطيته اللبن فرفض أن يشربه.

قلت: لماذا لا تشرب اللبن؟

قال: انتهى الأمر.. وفطمتنى رائحة السمك.. أين خبأت أمك السمك؟

قلت: لا أعرف.

قال يجب أن تعرف.. أنت طفل أبله.. أنت لا تصلح لتربية قط.. على من يربى قطا أن يكون سيدا حقيقيا.

قلت: ما هو السيد الحقيقى فى رأيك؟

قال: هو الذى يعرف أين خبأت أمه السمك. المفروض أن تطعمنى.. ألست حاكما علىّ؟

على الحاكم أن يطعم المحكوم.. وإلا فلا طاعة مع الجوع.

قلت له: تهددنى رغم إنك تعرف مشاكلى.. أمى سيدة حاسمة.. ودولاب المطبخ من الخشب القوي، والمفتاح صنع فى ألمانيا، وهو تحت رأسها.. كيف أمد يدى تحت مخدتها وأخرج المفتاح وأفتح الدولاب وأسرق لك السمك وأنظفه لك من الشوك وأطعمك؟!

قال: دع مهمة تنظيف السمك لى..

لا تشغل نفسك بهذه الأمور.

أحضر الطعام ودع لى مهمة تنظيفه.

قلت: تريدنى أن أسرق؟

قال: لا يسرق الجائع حين يسرق وهو جائع.

قلت: لا أفهم.

قال: براءة.. يمنح الجوع براءة.

دخلت أمى فانقطع الحوار.

قالت أمي: لماذا لم تفطر؟

قلت: نفسى مصدودة.. كل يوم فول فول.. زهقت من الفول.

قالت: ماذا تريد أن تأكل؟

تذكرت حلم القط بجزيرة حولها بحر من السمك وقلت:

ـ نفسى آكل سمك.

قالت أمى: إنت اتجننت.. سمك فى الفطار!!

كنت قد سمعت خالى يقول إنه شاهد الإنجليز يأكلون السمك فى الإفطار.

قلت: زى الإنجليز ما بياكلوا سمك فى القطار.. النهاردة أنا إنجليزى.

بدأت أردد لأمى ما حفظته من كلمات اللغة الإنجليزية التى يدرِّسونها لنا فى المدرسة..انبسطت أمى من ثقافتى ورغبتى فى التجنس المؤقت بالجنسية الإنجليزية وقالت فى اعتراض أخير:

ـ يا واد السمك يؤذيك عالصبح.

قلت: أبدًا.

قالت: اعمل لك سندوتش.

قلت: عظيم.

كان القط يرقبنى طول الوقت ويصفق لى بذيله.. رفع ذيله مرتين ففهمت أنه يحيينى.. حضر سندوتش السمك فقلت لأمى آكله فى البلكونة.. فهم القط، ولكنه سألنى بنظرة عميقة:

ـ أى بلكونة؟

قلت لأمي: البلكونة الكبيرة البحرى.

أسرع القط مثل سيف من البرق نحو البلكونة.. سرت مطمئنا أتظاهر أننى أقضم السندوتش.

وقفت فى البلكونة.

كانت تطل على حقول ورد حمراء، وأشجار توت عريقة.. وأمامها شباك أول فتاة قدر لى أن أقع فى حبها.

كانت هى تقف وترقبنى دون أن أراها.

مددت يدى فى السندوتش وأخرجت قطعة سمك وألقيتها للقط.

قال القط: براقو.

والتقطها من الهواء مثل أى كلب بوليسى مدرب.

قال لى: جرِّب أن تلقى قطعة ثانية وسأجرب أكْلَها قبل أن تصل إلى الأرض بثلاثة أقدام.

ألقيت إليه القطعة الثانية.. والثالثة.. والرابعة.. ومددت يدى بحثا عن القطعة الخامسة فاصطدمت يدى بلباب العيش.

ـ خلاص يا أستاذ.

قلتها للقط ولكنه لم يصدق إلا حين فتحت له الرغيف، وشمه جيدا وتأكد من خلوه من السمك.

أمسكت بيدى الرغيف وقلت أين أطوحه.. قبل أن أرميه بثوان دخلت أمي.

سألتني:

ـ إنت ماكلتش ليه؟

وبدأت آكل الرغيف الحاف متظاهرا بأنه ملىء.. متلذذا من السمك.. ناظرا إلى القط بعينين مغيظتين.. سعيدا فى نفس الوقت لأننى أضحى من أجل صديقى.

من نافذة البيت المقابل.. كانت «س» ترقب هذا المشهد.. كانت تضحك كما حدثتنى فيما بعد.

سعيدة لأننى آكل الرغيف بغير طعام.. مندهشة فى نفس الوقت من سر هذا التصرف.

كيف يحب الإنسان قطا أكثر مما يحب نفسه؟!

لم تكن تعرف أن الحب لا يجىء حين يجىء إلا هكذا.

إما أن يكسر الإنسان أسوار الذات ويخرج.

وإما أن يظل حبيس حبه لنفسه فلا يعرف أبدا مذاق الحب.

لم أكن أعرفها قبل ذلك أو أكلمها ولكننا كنا نذهب إلى المدرسة سويا فى سيارة «عم رضوان».. ونحن عائدون من المدرسة تانى يوم سألتنى بأرستقراطية وخبث:

ـ كان طعمه إيه العيش؟

قلت: عيش إيه أنا ما بكلش غير سميط؟

قالت: إمبارح كلت العيش حاف.. ليه..؟

قلت ببراءة: أصل القط أكل السمك.

قالت: ليه؟

لم أعرف ماذا أقول لها.

كيف تحدث من لم يذق طعم النبيذ عن تحولات العنب؟

كيف تقنع من لم يعرف العشق فى عمره، أن للعاشق جناحين يطير بهما وهو لا يبرح مكانه.

فى طفولتى كانت أى ابتسامة ممن أحب جناحًا يحملنى إلى عالم مسحور.. عالم ليس فيه امتحانات ولا متاعب ولا درجات ولا كحكات حمراء، ولا ضرب بالمسطرة على أطراف الأصابع.

عالم ليس فيه إلا الحب.. وحصان أبيض.

وأميرة تقف فى نافذة القصر المسحور، أنت تخبط على الباب الهائل المصنوع من الأصداف والخشب والفضة.

ثمة صوت من الداخل يسألك:

- من بالباب؟

- أنا بالباب.

لن يسأل فيك أحد.. لم تزل تقول أنا.. لم تزل تذكر أن لك ذاتا تقول عنها «أنا».. وإذن لا يفتح الباب.. سوف تنصرف وفى قلبك جرح صغير.. ثم تتراءى لك الأميرة الساحرة فى الحلم.

لماذا لم تحضر.. انتظرتك فلم تأت.. سجينة أنا وأريد أن أتحرر.

وتعود إلى الباب، ويسألك السائل: من بالباب؟ وترد أنا بالباب.. ويزداد صوت الأقفال وهى تغلق.. تنصرف أخيرًا وقد وقعت فى الحب.. يزداد وجهك شحوبا.. وجسمك نحولا وروحك شفافية.

إذا انصهرت روحك ولم تعد تستطيع أن تقول «أنا».

إذا ضاعت ذاتك فى ذات الحبيب.. وقرعت الباب.. وسألك السائل:

ـ من بالباب؟

لن تقول: أنا بالباب.

ستقول: أنت بالباب.

عندئذ يفتح لك الباب.

انفتح الباب لى فشهدت سجادة من الحشائش الخضراء تمتد حتى تلتقى بالأفق، على يسار الخضرة شاطئ من الرمال وبحر أخضر فى لون عيون القطط.

وأمام البحر صخرة مرتفعة.

وعلى الصخرة قصر تغطيه زهور الفل.. فى إحدى شرفات القصر تقف الأميرة... وتحت الشرفة حصان أبيض.

وتبدأ رحلتك مع العشق.

لا أعرف متى اكتشفت أننى أحب.

تحول حبى من القط إلى ابنة الجيران، أو قل إن حبى للقطط كان تدريبا على حب ابنة الجيران، تدريبا على حب فتاة ثانية، وتمضى التدريبات الروحية كما يقول العارفون حتى تكتشف يوما أنك أمام حب الجلال الخالق ذاته.

حين يقول الطين الملوث للبذرة: سأصنع منك شجرة ورد.. حين يقع ذلك فأنت فى الطريق.

فى البدء.

حدثت القط أننى أحب.

قلت له: أيها القط اللطيف.. لقد وقع صديقك فى الحب.

قال القط: ما معنى ذلك؟

قلت له: لا أعرف كيف أشرح لك الحب.. ولكنه شعور يجعلك تحس أنك قد عثرت على السر.. هو شيء رائع وممتع.

قال القط: أهو شيء ممتع كالسمك؟

قلت له: ذهنك مغموس فى بطنك.. وعقلك غارق فى ظلام اللحظة الحاضرة.. أنت قط طفس.

قال: أنا حيوان فلا تنسى ذلك.

قلت له: ألا تحب أبدًا؟

قال: لو استطعت أن أحب لصرت إنسانا.. مشكلتى أننى أرتدى جلد قط.

قلت له: عندما تقف هى فى النافذة، ينسكب من وجودها على البيت نور غامض فأحس أن الصداقة قد انعقدت بينى وبين مهندس البيت.. وبين العمال الذين اشتغلوا فيه.. وبين الطوب الذى صنعوه منه، وبين الأرض التى جاء منها الطين، وتمتد الصداقة إلى حوافر الحيوانات الطيبة التى سارت على الطين.. وتتصل الصداقة بالنجوم.. ألم نكن أصلا جزءا من نجمة هى الشمس.. نجمة كانت تحب وتشتعل.. ثم زادت عليها وطأة الإحساس بالعشق وانفجرت شظايا وصنعت الأرض والقمر والكواكب.. بردت الأجزاء حين بعدت عن الأم.. بردت الأرض وصنعت المسافة ولوعة البعد قشرتها الطينية.. أنت تتصل بهذا كله حين تحب.. إننى أحاول تبسيط الأمر لك.. هل تفهمنى؟

قال القط: أنت تتفلسف علىّ الآن فدعنا من فلسفتك.. إن أمك تشوى على النار لحما.. لماذا تشوون اللحم؟

قلت: طعمه يصير أفضل.

قال: أبدا..؟ اللحم النىء أفضل.. تفسدون الأشياء بوضعها على النار.. تقع لها تحولات كثيرة فتفسد.. آه لو ظل اللحم على براءته الأولى.. آه لو ظل السمك على براءته الأولى.

قلت: أنت ضيق الأفق حقا.. البراءة الأولى لا معنى لها.. البراءة الأخيرة هى القيمة الحقيقية.. أى كائن يعيش على السطح الترابى للأرض لا بد أن يتلوث.. العبرة هنا بالبراءة الأخيرة لا الأولى.

قال القط: تعتقد أنه لا وجود للبراءة الأولى؟

قلت: نعم!

قال: أنت حر وأنا حر، أنت إنسان وأنا حيوان.. لست مثلك.. أريد أن ألعب.

قلت له: كيف لا تهمد.. أنت لا تكف عن اللعب لحظة من ليل.. وتنام كثيرا أثناء النهار!

قال: مزاج القطط هكذا.

ظهرت الأميرة فى النافذة المقابلة فانقطع الحوار بينى وبين القط.

نظرت إليها فابتسمت.

حدثنى كيف يقف الناس أمام شلالات المياه الساقطة من أعلى الجبال.

كيف يقف الناس أمام الأهرامات.. أو قوس قزح.

كيف وقف الناس أول مرة أمام معجزات الدنيا السبع.

لو عرفت كيف كانوا يقفون صامتين بغير كلمة واحدة.. باستثناء هذا الخشوع الذى يتبدى فى العيون.

لو عرفت ذلك فسوف أقول لك إننى كنت أقف هكذا أمام ابتسامتها.

لم أستطع أن أرد التحية.

هل ترد أنت على تحية الشمس لك كل يوم؟

هل ترد على نسيم البحر حين تقف أمام أمواجه؟

أبدًا.

كل ما تفعله أنك تتلقى التحية دون رد.. وربما اعتقدت أنها حقك الطبيعى دون جدال، على الأرض أنواع من التحيات لا تستطيع لها ردا.. من بينها ابتسامات أول فتاة أحببتها.

تلاحظ البنت بأعوامها العشرة أننى مقطب أمامها ولا أبتسم.. لعلها تقول فى نفسها إنه لم يلاحظ الابتسامة.

لعلها تتصور أن نظرى ضعيف.

ها هى الابتسامة الثانية تشق طريقها إلى الوجه وهى تمشى على استحياء.. فى ركن الفم الأيمن ارتعاشة الوليد الجديد.

تفتر الشفاه عن ابتسامة طفلة ستكبر أمام عينيك.. وستقع هذه المعجزة أمامك فى ثوان وربما كنت منطفئا من الداخل، وربما أفلتت منك فرصتك الأخيرة فى رؤية المعجزات.

لم تزل المعجزة تولد أمامك.

أليست معجزة أن الإنسان يبتسم؟

قلى لى أى مخلوقات الله يبتسم غير الإنسان؟!

إن الحيوان لا يبتسم أبدا.. ووحوش الغابة ربما أطلقت أصواتا تشبه القهقهات البشرية المخمورة، لكن أحدا لا يبتسم فى الوجود غير الإنسان.. ثم يقولون لنا:

- نريد أن نرى الله كى نؤمن به.

ألا يكفى أن يشاهد الإنسان أجمل ما خلق الله لكى يؤمن به!!

أيكتفى من يقف أمام القطار بالتأكد من وجود صانع القطار..

ويحتاج من يقف أمام ابتسامة الإنسان إلى رؤية الله كى يتأكد من وجوده.. سبحانه وتعالى.

انتهت الابتسامة من صنع معجزتها وها هى تتهادى بين الشرفتين.

أريد أن أرد على ابتسامتها بطريقتى الخاصة.. أنحنى على الأرض وأرفع القط إلى أعلى وأقول لها:

- كبر القط عن الأمس.

وعندئذ كانت تقهقه.

وكنت أضحك معها.. وتتعانق الضحكتان بديلا عن عناق الجسدين، فنحن لم نزل أطفالا لا نعرف أن لنا جسدين.

القط ينزعج من رفعى له إلى أعلى ونحن نقف على الشرفة، ولا أعرف من أين عرف أن هذه شرفة وهذا شارع.. وأنه يمكن أن يسقط من الشرفة إلى الشارع فيموت.

لا أعرف من الذى حدثه بهذا كله.

القط يتشبث بيدى ويغرس أظافره فى لحمى متصورًا أنها ستقيه من السقوط.. وإذ ظللت أرفعه هكذا نطق:

ـ مياو عياو نياو.

سألته: ماذا تقول؟

قال: أنزلنى أولا.. لن أتكلم وأنا معلق هكذا.

أنزلته إلى الأرض وسألته:

ـ ما معنى مياو عياو نياو؟

قال: معناها.. الرحمة.

قلت له: أنت شديد الغباء.

هل تتصور أننى سأرميك من الشرفة؟!

سألنى: لماذا ترفعنى إلى أعلى إذا كنت لا تنوى أن ترمينى فى الشارع وتقتلنى؟

قلت: لتراك هى.

قال: من تكون «هى»؟

قلت: ألم أحدثك أنى أحب؟!

قال: ما معنى الحب؟



دائرة مفرغة تنتهى لتبدأ وتبدأ لتنتهى وتدور بك فإذا انتهت دورتها أسلمتك إلى ما تركته فى النهاية.

دورات لا تكف عن الدوران.

يولد الإنسان عاريا ويعود إلى الأرض وأصابعه قابضة على الهواء.. يحب ويعانق وبعدها يترك ويفارق.

لا شيء يبقى على حاله أبدا ولا استمرار لشيء، الكل باطل وقبض الريح، حتى الشمس تفقد جزءا من حرارتها كل يوم.. وعما قليل سيجىء يوم تبرد فيه ويكسو الجليد ظهر الأرض.

قد يكون هذا اليوم بعد عشرة آلاف سنة، وقد يكون بعد عشرة بلايين سنة، وقد يكون فى ساعة لا يدريها سوى الله.

قال مدرس العلوم: الأرض كوكب والشمس نجم.. والنجم ملتهب والأرض أربعة أخماسها مياه.. والشمس تفقد جزءا من حرارتها كل يوم ولكننا لا نحس.

ما معنى هذا؟

أيجىء على الأرض يوم تتجمد فيه مياه البحار؟!

نعم يجىء هذا اليوم.

جاء علىّ هذا اليوم حين سافرت هى إلى الإسكندرية.

قالت لى خلال عودتنا من المدرسة فى تاكس عم رضوان:

ـ هل تسافرون إلى الإسكندرية؟

قلت: لن نسافر.

قالت: أنا سأسافر.

سكتُّ.. وجاء يوم رحيلها.

كانت هى والقط والشمس قد صاروا شيئا واحدا.. وحين تحرك بها التاكسى إلى الإسكندرية انطفأت الشمس فجأة.

لم تكد الشمس تموت حتى تجمدت البحار فجأة.

أمسكت المراكب التى تمخرها وسط جليد كف عن تنفسه.

ماتت أسماك البحر فجأة حين انطبق عليها صدر البحر.. قاوم أحد الحيتان ولكنه سجن أخيرا وسط الجليد.. سجن يونس فى جوف الحوت المسجون.. امتلأت الدنيا بالبرد فجأة.

وعبثا حاولت أن أضم القط لصدرى أثناء الليل.

فراوه لم يعد يدفئنى.

صوت قراءته لم يعد يثير داخلى شيئا.

يلاحظ القط أن دموعا تسقط من عينى على فرائه.

يقول وهو يتثاءب: الدنيا تمطر.

لا أرد.

يعود يسألني: ما لك؟

أقول: لا شيء.. أنا أبكى لأنها ليست هنا.

قال: لماذا تبكى؟.. ومن هى التى ليست هنا؟

لن تفهم.. أنت قط ولن تفهم.. اصمت ودعنى أحزن.. للحزن قداسته فلا تعكره بالأسئلة التافهة والتثاؤب. لا تتثاءب فى وجهى وإلا وضعت أصبعى فى فمك.

عاد يتثاءب فوضعت أصبعى فى فمه فانزعج.. كأننى وضعت له قنبلة فى فمه.

عاد القط يتثاءب وعدت إلى التفكير فيها.. ماذا تفعل الآن فى مدينة الإسكندرية.. هل هى نائمة؟

بماذا تحلم؟

ألم يزل البحر هناك يتحرك أم تحولت أمواجه إلى الثلج؟

سألنى القط فجأة:

ـ ألست جائعا؟

قلت: لا أظن.

قال: أنا جائع.

قلت: أنت مفجوع.. لم أرك مرة واحدة ترفض الطعام.

قال: أحس بالفراغ الداخلى هذه الأيام.. ولهذا يسرع الجوع نحوى.

قلت: كنت فى البداية زاهدا.. ثم صرت مفجوعا.. ولا أحد يدرى ماذا يحدث لك غدا.

قال: التقلب من صفات الحيوان.

قلت: حاول أن تنام وغدا نأكل.

قال: غدا بالنسبة لى قد جاء.. أنا الآن جائع.

قفز من الفراش إلى الأرض.

سألته: إلى أين تذهب؟

قال: أبحث عن رزقى فى المطبخ.

قلت: أمى سيدة منظمة والأكل مخبأ فى الدولاب ولا داعى للسرقة.

قال: تستطيع اعتبار رحلتى إلى المطبخ رحلة استكشاف. هدفها علمى بحت.. البحث عن منجم للسمك أو اللحم.. تخيل منجما من السمك أو اللحم.. كلما أخذت منه لم ينفد.

قلت: صورة غريبة.

قال: هذه صورة الجنة عندنا .. بالنسبة إلى القطط ليست الجنة غير منجم من السمك ومنجم من اللحم.

أسرع يختفى من الغرفة.



بعد دقائق سمعت صوت ارتطام قوى فى المطبخ.. صوت حلة تقع من رف على الأرض.

أغمضت عينى وتناومت حتى نمت.

كنت حزينًا ومتعبًا فلم أعبأ به.

عثرت عليه فى الصباح ينام تحت أقدامى.

ـ ماذا وجدت بالأمس؟

قال: لم أجد شيئا.. البنت الشغالة لا تغسل الحلل جيدا.. اشتبهت فى إحدى الحلل.. فلما أوقعتها على الأرض اكتشفت أن فيها زفارة وليس فيها طعام.

منجم كاذب.

ما أعظم الكذب فى حياة الآدميين!

أحسست أن القط يهاجم الجنس الذى أنتمى إليه.

قلت له وأنا أعبث فى رأسه:

ـ الكذب مخلوق يدب على الأرض.. وأحيانا يموء كالقطط .

قال القط: الكذب هو ابن الإنسان.. من بين جميع المخلوقات التى خلقها الله فإن أشدها تغيرا تحت ضوء القمر هو الإنسان، والتغير جزء من الكذب.

قلت: تحابى جنسك من بنى الحيوان.

قال: بل أقرر حقيقة.. لا يكذب الحيوان.. يتصرف بدهاء لكنه لا يكذب.. الكذب يحتاج إلى الإنسان.. إلى رقى الإنسان.

قلت: أليست مأساة أن مجال الرقى يلامس مجال الكذب.

قال: يخلق الله الخلائق بغير كمال لحكمة عليا.

أدهشتنى النظرة الساهمة فى عين القط.. وأدهشنى كلامه.

سألته: لماذا يخلق الله الخلائق بغير كمال؟

قال: الملائكة قمة فى النقاء، لكنهم لا يعرفون.. والإنسان يعرف، ولكنه يكذب.. والحيوان لا يكذب، ولكنه وحش.

وهكذا تستمر سلسلة الخليقة.. يفتقر كل الخلق إلى الله.. ويحسون بنقصهم إزاء كماله اللانهائي، ويحسون بضعفهم إزاء تعاليه وكمال صفاته.

هذه هى الحياة.

قلت: إذن.. فالكمال أمل لا أمل فيه.

قال القط: الكمال هدف على الخلائق أن تسعى إليه.

قلت: لكن أحدًا فيهم لا يصل.

قال: ليس المطلوب أن تصل الخلائق، وإنما تكمن القيمة فى رحلتهم إليه.

بقدر ما تقطع من رحلتك إلى الله، بقدر ما تقترب من جوهر الحقيقة وترتفع.

قلت: تتحدث كصوفى!

قال: القطط مخلوقات صوفية الملمس صوفية الباطن.. باطننا يعرف الله وإن بدا ظاهرنا قريبا من الأرض. وللعلم، ليس التصوف أن تعرف الحقيقة. التصوف أن تكون أنت جزءا من الحقيقة.. لا قيمة للمعرفة المجردة.

تتحول المعرفة إلى فكر.. تصير نوعا من أنواع الرياضة البحتة.

أدهشتنى حكمته وتصورت أننى عثرت على قط أوتى من الحكمة قسطا لا بأس به.. وقررت أن أستفيد من الخير الذى أوتيه القط.

وضعته تحت الدراسة فترة.. لاحظت تصرفاته كلها.. راقبت ردود فعله جميعا لكننى لم أصل لشيء ذى بال.

كان القط يتصرف مثل أى قط عادى.. يصيبه الجنون إذا جاع.. ويموء إذا



أحس بالعطش.. ويسرق اللحم والسمك غير عابئ بقوانين الأرض الوضعية أو عرفها الجماعى.. وباختصار.. كان يبدو على القط انفصالا تاما بين النظرية والتطبيق.. بين ما يقوله وما يفعله.

أردت أن أحدثه فى ذلك ولكننى خجلت.. وذات يوم.. قلت أجمع شجاعتى وأحدثه.

انتهزت فرصة استمتاعه بالجلوس فى الشمس وقلت له:

- يا صديقى.. كيف حالك؟

قال وهو يتمطى: بخير حال.

قلت: عجيب!

قال: ما هو العجيب؟

قلت: ضميرك مرتاح؟!

قال: بالتأكيد.؟!

قلت: مدهش!

قال: ما هو وجه الدهشة؟

قلت: ألم تلاحظ هذا التناقض فى شخصيتك..أنت تتحدث حديثا لا يقوله أعقل العقلاء فى الأرض.. لكنك تتصرف مثل نمر صغير أو وحش.

كيف؟

تثاءب القط ومسح وجهه.. وقال: تثير قضية قديمة وتنعى على القطط ما لا تنعاه على الإنسان، نحن ننتمى إلى فصيلة الحيوان.. ومن الطبيعى أن تكون أقوالنا غير أفعالنا.. المأساة أن البشر يفعلون ما نفعله بغير حياء، ويجدون ما يبررون به جرائمهم من المنطق.

قلت صارخا: أنت تعترف الآن أنها جرائم.

قال: هى بالنسبة إليكم جرائم.

قلت: الجريمة واحدة يا سيدى القط.

قال: الجريمة نسبية حتى ولو كان الفعل واحدا.. تأمل فعل من يتسلق مواسير المياه، ومن يتسلق جبال الألب.. أنتم تسجنون من يتسلق مواسير المياه، وتكرمون من يتسلق جبال الألب.. الفعل واحد وربما كان جهد من يتسلق مواسير المياه أكبر وأصعب من جهد من يتسلق جبال الألب.

ولكن اختلاف النية يجعل الفعل لصوصية فى حالة، ويجعله بطولة فى حالة أخرى.

قلت: ماذا تريد أن تقول؟

قال: أريد أن أقول ما لا تقوى على فهمه.

قلت: أنت تهرب منى.

قال: بل أشفق على طفولتك.. أنت ساذج.

***

لم يعجبنى إشفاق القط على طفولتى.. ولا أعجبنى اتهامه لى بالسذاجة، وكانت قصة الحب الخرافية التى أعيشها تؤكد لى أننى قد كبرت ولم أعد ساذجا.. وقررت أن أناقشه فى الأمر.

انتظرت أفضل أوقاته.. وكانت فترة القيلولة.. بعد طعام الغداء.

إنه يختار بقعة مشمسة فى البيت يسترخى فوقها، ثم يمد يده تحت رأسه ويغفو قليلا.

انتظرت حتى نام وأيقظته لأسأله:

ـ لماذا تتهمنى بالسذاجة؟

نظر إلىّ بعينين عابستين وقال:

ـ أى دليل تريد على سذاجتك أكثر من إيقاظى من النوم،ألا يستطيع الإنسان أن يرتاح فى بيته؟

قلت له: تعتبر أن هذا بيتك؟

قال بالتأكيد:ألم تسمع الحكمة الشهيرة «للقط بيت وللكلب صاحب»؟

قلت له: سمعتها.. وكنت أتصور أنك ستكسر الحكمة وتثبت لى أنك أوفى من الكلاب.

قال القط محتجا: لست كلبا لأكون وفيًا.. إنما أنا قط .

قلت له محاولا إخراجه من هدوئه: خسارة!

قال القط حانقًا: لا تحدثنى عن حسابات الربح والخسارة لأننى لست بقالا.. وإذا ظللت تحدثنى بهذا المستوى فسوف أتركك وأنام.

انتهى القط من كلماته وعاد يغمض عينيه ويغفو.

وعاودت إيقاظه.

قلت له: لماذا تعتبر أن مجرد ذكرى للكلاب أو إشارتى إليها إهانة لك ؟

قال القط: الكلب روح بسيطة.. أما القطط فأرواح أشد تعقيدا، آسف. لقد استخدمت الكلمة الخطأ.. أنا لا أقصد الروح وإنما أتحدث عن النفس.. الكلب نفس بسيطة.. أما القطط فنفوس أشد تركيبا وتعقيدا.

قلت له وأنا أضحك: أخيرًا تعترف أنك مخلوق معقد.

قال القط عابسا: لا تكن جاهلا.. التعقيد هنا إشارة إلى بناء هذه النفس..

وهو دليل على الرقى.. انظر إلى بساطة الحجارة.. إنها لا تفعل شيئا غير أن تكون حجارة، أما القطط فتتغير ألوان عيونها فى النهار عشرات المرات، وفى الليل عشرات المرات.. انظر إلى عينى ترى نيرانا حمراء فى قاعها.

أخافنى حديث القط فلذت بالصمت.

وعاد هو إلى نومه الهنئ.

ولم أفهم فيم كان يفكر وهو نائم.

إن عضلة من عضلات وجهه كانت تلعب.. كما أن قدمًا من أقدامه راحت تتحرك حركات خفيفة وسريعة، ومضيت أتأمله وهو نائم.

فتح عينيه ونظر إلىّ فلما اطمأن إلى انصرافى عنه عاد يغمض عينيه.

* * *

مرت الأيام.. وراح القط ينمو.

تضاعف حجمه ودخل مرحلة ما قبل الشباب.. وهى مرحلة لم أفهمها إلا فيما بعد.

فوجئت بها، وتمثلت هذه المرحلة فى النشاط الذى أصابه فجأة.. وفى الحيوية التى هبطت عليه كالطوفان.

إن القط يجرى من أول الغرفة إلى نهايتها جريا سريعا، ثم يقفز فجأة إلى السرير، ومن السرير إلى المنضدة، ومن المنضدة إلى الدولاب.

ثم يقبع فوق الدولاب وقد تحفز قليلا، ثم يتشمم سطح الدولاب فلا تعجبه رائحة النفتالين التى تسربت من الملابس المخزونة، عندئذ يقفز قفزة هائلة من الدولاب إلى السرير إلى المنضدة ثم يمرق من باب الغرفة حيث يعاود جريه فى الصالة.. لم أفهم سر تصرفاته.

سألته فى لحظة من لحظات استعداده للقفز:

ـ ماذا تفعل؟

قال القط: اصمت.. ودعنى أشتغل.

قلت لنفسي: أى شغل يقوم به القط.. لا ريب أن وراء نشاطه سرا غامضا.. سوف أنتظر حتى يعود إلى حالة من حالات المزاج الرائق حيث يطيب له أن يتحدث.. ثم أسأله.

❀ ❀ ❀

سأدرك فيما بعد ما الذى كان يفعله القط.

❀ ❀ ❀

مسرح البولشوى فى موسكو.

يفتح الستار على باليه «أنا كارنينا» لتولستوى.. الراقصة الأولى مايا بلتسكايا.. أجلس فى المقاعد الأولى بمحض الصدفة.

كنت عضوا فى الوفد الأدبى لإفريقيا وآسيا، وكنا نزور موسكو، وسألت عن تذكرة لحضور البولشوى فاعتذروا آسفين بأن المسرح محجوز لستة أشهر مقدما.

كنت أحلم أن أشاهد فريق البولشوى.. وملأنى اليأس لضياع الفرصة.. وذات يوم ذهبت أزور مصريا يقوم بتحضير رسالة للدكتوراه فى جامعة موسكو.

ودق التليفون فى غرفته.. استمع قليلا لمحدثه ففهمت من الحديث أن أحدا يعرض عليه أن يذهب معه لمشاهدة الباليه فى مسرح البولشوى.

وجدت نفسى أمد يدى إلى التليفون وأحدث إنسانا لا أعرفه وأخبره أننى أنا الذى سيذهب معه.

وهكذا دعوت نفسى على الباليه.

كان المهندس المصرى الذى يدرس هناك قد حجز منذ شهور طويلة تذكرتين له ولزوجته، ثم مرضت زوجته فكلم صديقه، والتقطت فرصتى وذهبت..حين شاهدت راقصى الباليه وراقصاته.. فهمت لماذا كان القط يقفز من الدولاب إلى الأرض، ومن الأرض إلى المنضدة وبعدها إلى الدولاب.

كان القط يقوم بتدريباته، وكان يعبر عن عشرات المعانى برشاقته واستخدامه لمرونة جسده.. وكان راقصو الباليه ينافسونه، أو كان القط هو الذى ينافسهم.. لست أدرى.

كل ما أدريه أن فى كل جسد إنسانى، أو حيوانى، قدرا من الرشاقة والمرونة والجمال الذى يشير لإعجاز القدرة الخالقة التى أبدعت الأجساد.. ويشير فى نفس الوقت إلى طاقات الفرح التى منحها الله تعالى للخلائق حين منحهم الحياة.

ذكرتنى رشاقة الراقصين والراقصات برشاقة القط.

وذكرتنى وحدتهم مع الموسيقى بوحدة القط مع موسيقى الكون التى كان هو وحده يسمعها وهو يرقص.

كان القط يجتاز مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب.. ومن ثم فقد راح يرقص فرحا بالنعمة الجديدة التى يحسها فى أوصاله.

نعمة الشباب بكل ما يحمله الشباب من قوة.

* * *

تغير سلوك القط بعد أن قضى فى بيتنا فترة.

فهم بغريزته مراكز القوة فى البيت.. ونجح أن يتفاهم معهم بأسلوبه المنفرد حتى أنه طواهم جميعا تحت أجنحته كما يقولون.

فهم أن أمى تكره صعوده على فراشها أو دخوله غرفتها، فلم يعد يتجاوز باب الصالة إلى غرفتها.

فهم أن حركته فى المطبخ تثيرها وتجعلها تتعثر فيه وهى تسير فلم يعد يعترض طريقها.. إنما صار يقبع فى زاوية من زوايا المطبخ ويرمقها بنظرات متسولة.

ورقّ قلب أمى أخيرا له.

صارت تعتبره أحد سكان البيت المسئولين منها، وصارت تعد له طعامه وحده.

وكانت ـ بالطبع ـ تكتفى بالعظام وجلد اللحم وقطع الشغت، وقد تحدث القط معى فى الموضوع ذات يوم.

قال لي: يبدو أن والدتك تتصور أننى كلب ولست قطًا .

سألته: لماذا؟

قال: إنها تؤثرنى بالعظام.. ولقد أفهمتك قبل ذلك أننى لست كلبًا.

الكلاب تأكل العظام ولكن القطط تأكل اللحم.

قلت له: لماذا لا تقول هذا لأمى؟

قال القط: يد أمك أسرع من عقلها. لن تفهم.

قلت له: والحل؟

قال: الحل أن تعطينى أنت نصيبك من اللحم والسمك، هذا هو الحل الوحيد.

قلت له: وأنا.. ماذا آكل إذا أعطيتك نصيبى كله؟

قال: لا داعى له كله.. نصفه يكفى.

ضحكت ساخرًا.. فنظر إلىّ القط بعينين قلقتين.

قال مستعطفا: أنت إنسان كريم ولن تتركنى أهلك من الجوع، أو أضيع باعتبارى كلبا.

يجب أن تتصرف. ألسنا أصدقاء.. ألسنا عصابة واحدة.. تصرف إذن.

اكتشفت فيما بعد أن القط أقنع أمى بشرعية وجوده فى البيت، وأقنعنى بشرعية اقتسامنا للطعام، وأقنع أبى بأدبه الجم ورصانته أنه هو ابنه المؤدب، وأقنع أخوتى البنات بالتمسح فى أقدامهن أنه نعم الصديق الحنون.. بعد ذلك بدأ يتصرف فى البيت كما لو كنا جميعا ضيوفا عليه.. كان كريما للغاية، فعاملنا كأنه صاحب البيت.. واعتبرنا ضيوفا ثقلاء يحتملهم لوفير كرمه وعميم أريحيته.

كان واضحا أن القط يحب نفسه بعمق.

قلت له: كيف تكون صوفيا وتحب نفسك لهذا الحد؟!

أنت تكذب.

قال القط: الصوفى يقتل نفسه فى عشق الحق حبًا لنفسه وإنقاذًا لها.

وحِرْتُ ماذا أقول له.

ثم فكرت حتى اهتديت.

قلت له: أنت أنانى تقصد ذاتك لا الحق.

قال القط: أعظم أنواع العشق عشقك لنفسك.

قلت: أليس هذا جوهر الأنانية؟

قال القط: بل هو جوهر الحكمة عندنا.. الحكمة الحيوانية.

هل نسيت أننى حيوان.. ما يعتبر جوهر الأنانية عندكم نراه نحن جوهر الحكمة.

أحرجنى رده.

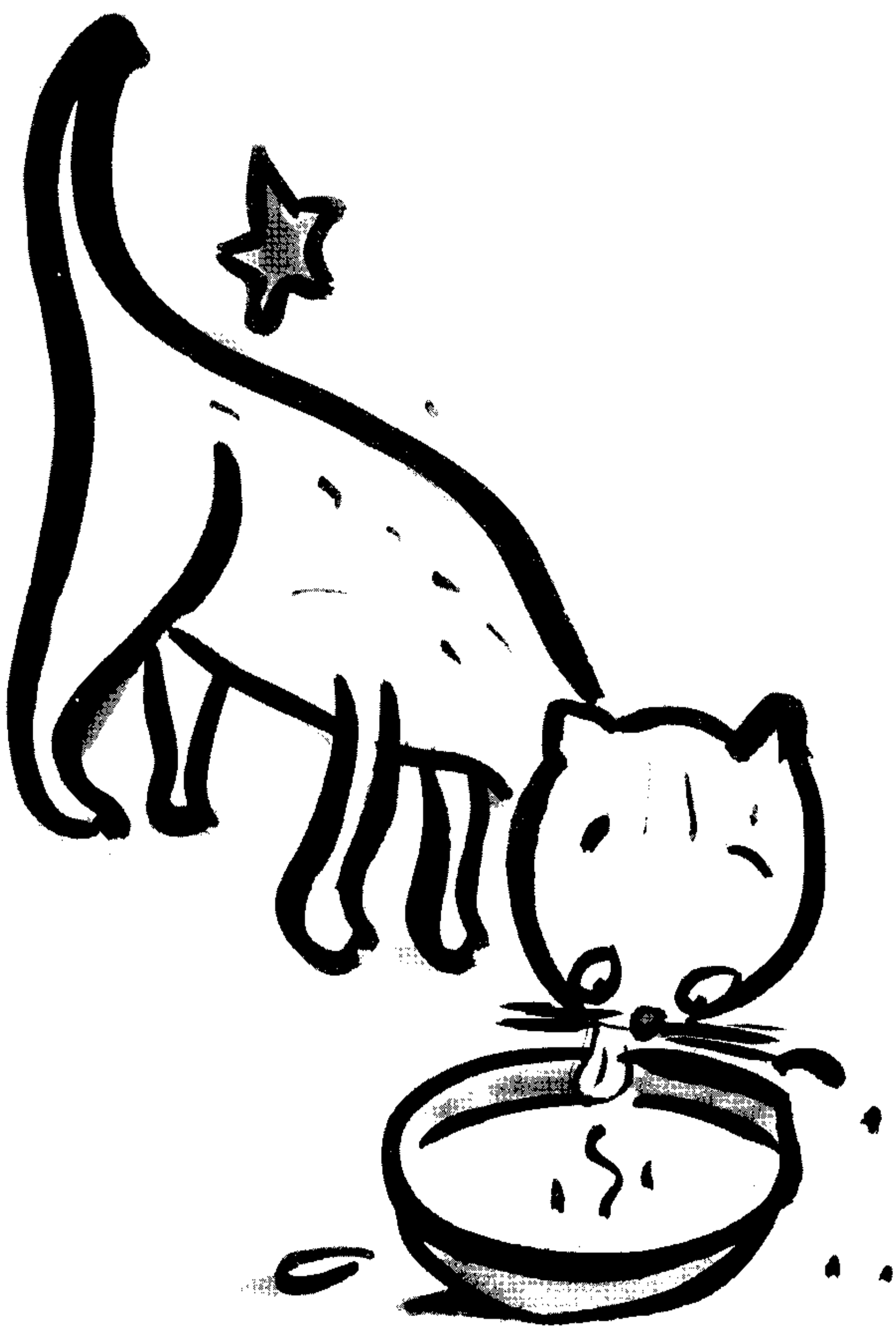
لقد نسيت أنه حيوان.. وكثيرا ما كنت أنسى انتماءه الحيوانى لعائلة النمور المصغرة.. وأعامله بوصفه إنسانا يرتدى معطف قط.

وأحيانا كان القط يتعامل معى كما لو كنت قطا يتخفى فى جلد البشر وثيابهم.

وكان هذا التبادل بيننا دليلا على عمق الحب الذى يربطنا، ورغم ثقتى أن القط كان يحبنى.. إلا أنه لم يستطع أن يخبئ عنى حبه الواضح لنفسه.

كان يحب ذاته حبا عميقا.. أو قل إنه كان عمليا للغاية.. إن كل ذكائه وسلوكه توظف لهذا الغرض.

أردت أن أسأله فى ذلك، لكننى لم أكن أعرف كيف أسأله ولا كنت أعرف كيف أخاطبه.



ونصحنى القط أن أقرأ قصيدة «ت. اس. اليوت».. فى مخاطبة القطط.

لقد قرأت عن أنواع مختلفة من القطط.
ورأيى الآن أنك لن تحتاج إلى مترجم.
لتفهم شخصيات القطط.
لقد تعلمت ما فيه الكفاية لتعرف.
أن القطط مخلوقات مثلى ومثلك.
ومثل بقية الناس الذين نجدهم.
وقد حكمتهم نماذج مختلفة من العقل.
إن بعضهم معتوه.. وبعضهم مجنون.
إن بعضهم طيب وبعضهم سيئ.
إن بعضهم أفضل وبعضهم أقل فضلاً.
وهم جميعا كالبشر يمكن وصفهم فى الشعر.

والآن.. كيف تخاطب القطط.
فى البداية.. سوف أنعش ذاكرتك.
وأقول.. إن القط ليس كلبا.
إن الكلاب تتظاهر بأنها تحب القتال.
وهم كثيرا ما يزومون.. وأحيانا يعضون.

رغم كل شىء.. يبقى أن الكلب فى مجمله.

ما تستطيع أن تسميه روحا بسيطة.

مرة أخرى أذكرك أنه.

الكلب كلب.. والقط قط.

مع القطط.. يقول البعض إن هناك قاعدة صحيحة.

لا تتكلم مع القط ولا تخاطبه حتى يكون هو الذى يخاطبك.

ولتضع فى ذهنك وأنت تخاطبه أن القطط تكره رفع الكلفة.

هذا صحيح تماما.. صدق الشاعر فيما قاله.

إن القطط تكره انسياح الحدود، وتنفر من رفع الكلفة، ولا تحب أن يقتحم عزلتها أحد.

وهناك تقاليد للحديث مع القطط، ولقد أنبأنا اليوت فى شعره أنه كان يخلع قبعته وينحنى قبل أن يخاطب القط.

ولكن القطط ليست فى سذاجة الملوك، لتكتفى بالاحترام والتحية والمراسيم الانحنائية.. إنها تتطلب لإثبات الولاء أدلة أكثر اقناعا.

ولكى تكسب ثقة قط.. يجب أن تقدم إليه طبقا من القشدة.

ثم تنحنى وأنت تضع له طبقا من اللحم أو السمك.. حبذا سمك السالمون...

ولتحذر جيدا وأنت تقدم للقط طعامه أن تلجأ لأى خداع بشرى.. أو تتصور أن القط حيوان ولن يميز بين قطعة اللحم الجيدة وقطعة الشغت الرديئة.. أيضا

أحذرك أن تعتقد أن القط لن يدقق كثيرا فى رائحة السمك أو اللحم،ومن ثم تستطيع أن تقدم إليه سمكا فاسدا أو لحما يوشك على التغير.

سيضع القط أنفه على الطعام الفاسد ثم يرفع رأسه وينظر إليك لا تبتسم فالأمر ليس هزلا.

ستقول نظرات القط الغاضب:

ـ هذا طعام فاسد.. أنت تريد قتلى أيها الوحش الآدمى الذى يختبئ وراء قناع الإنسانية الراقى.

لن يأكل القط.. ولن يثق فيك بعد ذلك.

وعندما يخسر الإنسان ثقة قط، فمن الصعب عليه أن يكسبها بعد ذلك.

إن القطط ليست مخلوقات ساذجة.

إن قدرتها على تشمم الطعام واكتشافه.. لا تقل عن قدرتها فى اكتشاف جوانب الشخصية الإنسانية ومعرفتها.. والويل لك حين يكتشف القط الذى تربيه أنك مخادع.

أررررر ... أرررر .... أرررررر

كان القط يقرأ.

قربت يدى من رأسه فأبرز مخالبه.

قدرت فى نفسى أنه مشغول بشىء هام.. ولا يريد أن يزعجه أحد.. ربما كان يصلى.

وربما كان يذاكر لأنّ امتحانه صار على الأبواب.

أبعدت يدى عن رأسه ومضيت أقرأ فى كتاب المدرسة.

كان امتحانى يقترب مثل غول من غيلان الحواديت القديمة المرعبة.

لماذا خلق الله المدرسين والمدارس؟

لماذا لا تكون الحياة مجرد حواديت من الجدات فحسب؟

لماذا تكون هناك امتحانات هدفها اعتصار التلميذ ومعرفة حظه من الحفظ؟

لماذا يضربنا المدرسون؟ ولماذا يقحمون على عقولنا كل هذه الكمية المخيفة من المعلومات الثقيلة؟

إن عقلى ينوء تحت ثقل هموم هائلة، ولم يزد عمرى على العاشرة بعد.

لماذا؟

سألت نفسى بيأس، ثم أضاءت فى ليل اليأس فكرة متفائلة.

ـ لا ريب أن هناك مناطق أخرى ليست فيها مدارس.. لا ريب أن على سطح كوكبنا الأرضى غابات تضم وحوشا.. وليست فيها مدارس.. كنت أفضل العيش فى غابة على الحياة فى مدرسة.. سمعنى القط وأنا أدمدم بالعبارة الأخيرة.

قال: أنت ساذج.

سألته: لماذا؟

قال: ألا تعرف أن مهمة المدارس هى تخريج وحوش كالغابات تمامًا.. الفرق بينهم وبين وحوش الغابات أن الوحوش من بنى آدم يتحركون طبقا لخطة مدروسة وخرائط مرسومة، وأنابيب اختبار، وشاشات رادار، ومدفعية ميدان، وصواريخ قادمة من الفضاء، تأمل الحروب وقل لى.. كيف يبدو منظركم فيها كآدميين؟!

* * *

أدركت أن القط يتفلسف.. كانت تصيبه موجات من الفلسفة لا أعرف السر فيها، وكان يقول بالصمت أحيانا، أو بنظرة عينيه آلاف الأشياء الصعبة التى لا أفهمها.

لم أجاذبه أطراف الحديث.

كنت محكوما بالخوف.. مثل القضاء الداهم أو الزلزال المزلزل يقترب الامتحان.

إن القط يتهمنا بالوحشية.. ها قد تحول الوحوش إلى مخلوقات مسكينة بائسة ترتعش فى ملابسها من الخوف.. ورغم أن الامتحان محدد فى يوم معين من أيام السنة.. وهو عادة آخر أيام السنة.. رغم أن الامتحان معروف باليوم والساعة من أول أيام السنة.. رغم ذلك كان الامتحان يفاجئنا دائما.. وكان يفاجئنى بشكل خاص. كنت أكره أساسا فكرة أن يمتحن الإنسان الكبير أخاه الإنسان الصغير.. وكانت هناك علوم أحبها وعلوم أكرهها.. ومواد تستهوينى ومواد أنفر منها، كان التاريخ يشبه مجموعة من الحواديت الجميلة ذات المعانى التى تشبه حكايات جدتى.. أما الجغرافيا فكانت طعاما لا يستطيع ذهنى ابتلاعه.. ولم يبقَ من كل دروس الجغرافيا فى ذهنى غير عبارة تقول:

حار جاف صيفًا.. دافئ ممطر شتاءً.

ولا أعرف أى بلد كان المقصود بها.. أهى مصر. لم تعد كذلك.. صارت حار رطب مخنوق صيفًا.. بارد ممطر موحل شتاءً.

ورغم أننى سأصير عندما أكبر عاشقا للأماكن.. إلا أنهم كانوا يدرسون لنا الجغرافيا بأسلوب تقليدى بعيد عن الحب.

لم نرَ حتى تخرجنا صورة واحدة للسافانا مثلا..وحين كبرت فيما بعد سافرت لإفريقيا، وسألت واحدا من الإفريقيين عن المشهد الذى نراه.. قال ببساطة:

هذه هى السافانا.

وكدت أتعلق برقبته من فرط الفرح.

أخيرا شاهدت السافانا.

لماذا لا تكون الجغرافيا مجموعة من الأفلام والصور والرحلات؟! بلاش الرحلات.. ستقولون إن الرحلات كالشعر، والشعر صعب وطويل سلمه.. إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه.

ستقولون إن العين بصيرة واليد قصيرة، فلتكن الجغرافيا أفلامًا وصورًا ثم نتحدث بعدها فى الجغرافيا.

إن الجغرافيا علم يقودك إلى **الله**.. وكل العلوم تقودك إلى **الله**.. ولكن المدرسة المصرية صدت قلوبنا عنها جميعا، وكادت تصرفنا عن **الله**.. لولا أن تداركتنا رحمة **الله**.

حتى حصص الدين كادت تكون حجابا عن **الله**.

كنت أحب **الله**.. بفطرة سليمة تعترف لخالقها بالفضل، ورغم ذلك، فقد نجحت دروس الدين أن تزرع فى نفسى رعبا مخيفا من الموت والعالم الآخر والنار والجلود التى تشوى عليها.

مرة أخرى كان منهج الدين وأسلوب التدريس مسئولين عن ذلك، ولولا رحمة **الله** لخرجنا من المدرسة أكثر جهلا مما دخلناها.

والجهل الحقيقى أن تعرف معلومات كثيرة.. وتحب **الله** قليلا.

الجهل أن تعرف دون أن تحب.

والعلم أن تحب بعد أن تعرف.

كنت طفلا ساذجا فلم أعرف الفرق بين الجهل والعلم.. ومضيت أقرأ وأرتعش خوفا من الامتحان.

كان أبى مدرسا ومن هنا فقد جعل البيت مدرسة.

وكانت المدرسة بيتا ثانيا لى، وحاصرنى الرعب فى البيت والمدرسة.. ولم أعرف ماذا أفعل.. توجهت إلى القط رغم أنه أصغر منى حجما ومقدرة.

قلت له: أنقذنى.. أو فكر معى .. ماذا أفعل.. إن الامتحان يقترب.. وإذا لم أنجح فيه فسوف يتحول البيت إلى الجحيم الذى حدثتنا عنه المدرسة.. ستوقد نار كبيرة، ويرموننى فيها.. إننى خائف ومرهق.

قال القط: كلام فارغ.

قلت له: ماذا تقصد؟

قال: خوفك كلام فارغ.. أنت خائف لسبب فى ذهنك.. لن تدخل النار ولن ترسب.. سوف تنجح.. أنت تسهر وتقرأ طوال الليل فى كُتب المدرسة.. من المستحيل أن ترسب.

قلت للقط: أخطأت فهمى.. إننى أسهر طوال الليل حقا، وأقرأ طوال الليل فعلا.. ولكننى لا أقرأ فى كتب المدرسة.. هذه قصص وروايات وكتب من كتب الأدب.

قال القط: أرى أننا فى موقف سيِّئ.

قلت له:بدأت تفهمنى.

قال القط: تترك عملك وتفعل ما ليس مطلوبا منك.

قلت له: تمام.

قال القط: هذه تصرفات تشبه تصرفات القطط.. أتكون قطا يرتدى ثياب البشر.. أم لعلك قط مسحور.

قلت له: لا تمزح الآن وقل لى ماذا أفعل؟

قال القط: لو حدثتك عن حل حاسم وسريع.. ماذا تقدم إلىّ مقابل ذلك؟

قلت له: نصف مملكتى لمن يأتينى بحصان.

قال القط: دعك من الكلمات المسرحية لشكسبير.. قل لى.. هل تفتح الثلاجة وتحضر إلىّ صدر الدجاجة الذى وضعته أمك فيها؟

قلت للقط: لكن هذا طعام أبى.

قال: قل لهم إنك جعت فأكلته.. إن أمك تحب أن تراك تأكل.

قلت له: قلت لك إن هذا طعام أبى.. ستغضب أمى وسيغضب أبى.

قال: أمك تحبك أكثر مما تحب أباك.. ولن تغضب.. وأبوك يحبك أكثر مما يحب نفسه.. ولن يغضب.. لا تكن طفلا ساذجا.... ماذا قلت؟

فكرت قليلا ثم قلت له: إذا أحضرت إليك صدر الدجاجة فهل تنقذنى من الرسوب فى الامتحان؟

قال القط: بل أدلك على طريق ينقذك من الرسوب.

قلت له: كيف أضمن أنك تعرف طريقا؟

قال القط: ألم تسمع جدتك تقول: «يوضع سره فى أضعف خلقه».

قلت له: اتفقنا.. قل لى.

قال القط وهو يلحس يده ويمسح بها وجهه وشواربه:

ـ الدجاجة أولا.. سوف أحدثك وأنا آكلها قطعة بعد قطعة... إن الحديث يحلو مع الطعام.. أدركنى بصدر الدجاجة.. نهضت مسرعا إلى الثلاجة.. فتحتها وأخذت صدر الدجاجة، وعدت بها إلى القط.. وضعتها فى طبقه وقلت له:

ـ حاول أن تأكلها بسرعة، نحن نرتكب الآن جريمة سرقة، وسوف نتبعها بجريمة إنكار للسرقة.. أى سرقة وكذب، أى مصيبتان معا.

قال القط: لا تكن حنبليا إذا تعلق الأمر بالمعروف.. أنت الآن تؤدى معروفا لمخلوق قد يكون أقل منك فى سلم الخليقة.. لكن هذا لا ينفى أنك تصنع خيرا.

قلت للقط: قل لى الآن ماذا أفعل لأنجح فى الامتحان.. علما بأننى لم أذاكر.

قال القط وفمه مملوء بالطعام: انتظر حتى أبتلع هذه القطعة الأخيرة.. هذه دجاجة طيبة.. إننى أشهد لوالدتك أنها طاهية، أنفاسها أطيب من أنفاس المسك والعنبر.

قلت له: تقول جدتى إن الطعام نَفَس.

قال القط: أراك متأثرا بجدتك.

قلت: نعم.

قال: لماذا لا تسأل جدتك عن طريقة للنجاح دون استذكار؟

قلت للقط: أراك خدعتنى إذن..دفعتنى إلى السرقة وستدفعنى إلى الكذب، وأنت لا تعرف شيئا.. أنت قط مخادع. كنت أتصورك نمرا مصغرا يعرف كل شيء.

قال القط: لو أحضرت إليك أعظم نمور الغابة فلن يستطيع أن يقول لك كيف تنجح دون أن تذاكر.. أنت تطلب المستحيل يا صديقى الساذج.

قلت للقط: وبعدين.

قال: ولا قبلين.. كم بقى على امتحانك؟

قلت له: أسبوع واحد.

قال: اسمع.. هناك طريقة مجربة.. اقرأ أجزاء من الكتب المدرسية كما تقرأ الروايات والقصص.. انس أنها كتب مدرسية، حاول أن تنسى ذلك.. أعرف أن الأسبوع لا يكفى.. فى نفس الوقت تستطيع أن تلجأ للصلاة.. اذهب إلى الله. قل له: يا رب.. أريد أن أنجح.. ربما بارك الله لك فيما تقرأ.. ربما جاء الامتحان فيما قرأت.. صمت القط برهة ليلتقط أنفاسه ثم عاد يقول:

- هناك مسألة هامة جدا.. الجأ إلى جدتك.. قل لها أن تدعو لك لتكون من الناجحين.. إن جدتك تصلى، ثم إنها حجّت.. مَنْ يدرى.. لعل دعاءها يستجاب.

* * *

بدأت أصلى.

راقبنى القط وأنا أركع وأسجد.. فلما انتهيت من الصلاة رأيته يتمتم بشيء.. كان صوته خفيضا فلم أسمع.. قلت له: ماذا تقول؟

قـال القط:

صلى وصـام لأمر كـان يطلبه

فلما انقضى الأمر لا صلّى ولا صامَ

قلت له: لعلك تقصدني بما تقول.

قـال القط: هذا شعر لواحد من الآدميين كنت أردده.. لم أخترعه ولا كتبته..

لماذا تتصور أنني أقصدك به.. صحيح.. صدق المثل العامي:

«اللي على راسه بطحه يحسس عليها».



غاظنى القط.. ولكنه كان صادقا.. كنت أتبين داخل نفسى وأنا أصلى إحساسا بالانتهازية.. إننى أصلى تحت ضغط الحاجة.. تحت ضغط الغرق... ومن يدرى هل أداوم على الصلاة بعد أن أنجو إلى البر، أم أعاود مسيرتى فى الجحود.

لجأت إلى جدتى أخيرا.

رميت نفسى فى أحضانها وحدثتها أن الامتحان يقترب وأننى سوف أرسب.

قالت لي: سوف تنجح.. أنا أدعو لك فى الصلاة أن تنجح.

لم أكن قد قلت لها شيئا، ولم يكن القط قد حدثها عن شىء فكيف عرفت؟

كيف تستجيب لى قبل أن أطلب منها أو أسأل؟

أليس هذا مدهشا؟!.. نظرت إليها وقلت:

ـ احكى لى حكاية يا تيته.

قالت: كان يا ما كان.. يا سعد يا إكرام.. ما يحلا الكلام إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام.

قول.

قلت لها: ماذا أقول؟

قالت: قل عليه الصلاة والسلام.

قلت: عليه الصلاة والسلام.

قالت جدتى: فى قديم الزمان.. وسالف العصر والأوان..عاش ملك من الملوك الشجعان.

كان اسمه.. إبراهيم بن أدهم.

كان الملك غنيا يملك قصرًا طوبة من ذهب وطوبة من فضة.. وداخل القصر كانت السجاجيد الثمينة والأثاث والرياش والأبهة.. وكان الملك يحب الموسيقى والغناء والشراب.. والبخور.. وكان أتباعه الأمراء يعرفون حبه للموسيقى والطرب، فهم يحضرون له الجوارى وينتقون من بينهن أحلاهن صوتا ويعلمونها الغناء.. لتغنى لملك البلاد السبعة.

وكان الليل إذا جاء انعقد مجلس الملك ودارت الموسيقى ووضعت أطباق الطعام وأدير الشراب ولعلعت الضحكات.

ونقر الباب ذات يوم سيدان غريبان لم يرهما أحد.

سألا: هل صاحب هذا القصر أمير أم عبد؟

قال حراس القصر: بل أمير.

قالا: نعم.. لقد قدرنا ذلك.. لو كان عبدا لاستحى من ربه.

قال الرجلان كلمتهما وغادرا المكان.. وبلغ الأمير إبراهيم بن أدهم هذا الحوار، فانقدح فى عقله معناه وأدرك أنه يتصرف فى الدنيا كملك لا كعبد لله.. وخرج الأمير من ملكه فلم يعد إليه.

خرج من ماله وملكه وثرواته وارتباطاته وكل ما يشده إلى الدنيا، خرج إلى الجبال والصحراوات والأودية.. وانطلق فى طريقه الروحى بحثا عن الحقيقة الخالدة.. لم يعد يراه أحد.. وانطلقت الشائعات تقول إنه صار شحاذا لا يجد قوت يومه.

ومرت سنوات وخرج أمير كان من أتباع إبراهيم بن أدهم يتمشى على شاطئ نهر.

وفوجئ هذا الأمير بإبراهيم بن أدهم وهو يجلس على شاطئ النهر ويرقع ثيابه، كان يمضى فى عمله صامتا وهو يضع الإبرة فى ثوبه ويخرجها منه ويعاود وضعها فيه ثم يخرجها منه كى يخيط الرقعة.

وقال تابعه القديم فى نفسه: ما أغرب الزمن.. لقد كان هذا الشيخ الفقير الذى جلس يرتق ثيابه مَلكًا على سبعة بلاد.. وها هو اليوم يجلس كالمتسول وهو يخيط ملابسه.

وانكشف لإبراهيم بن أدهم تفكير تابعه القديم، ولذلك ألقى إبرته فى الماء.. ثم ناداها.. فإذا آلاف الأسماك، فى فم كل منها إبرة من ذهب، قد رفعت رءوسها من بحر الحق قائلة: خذ أيها الشيخ إبرتك.. عندئذ التفت الشيخ إلى الأمير وقال له: مملكة القلب خير أم ملكى القديم الحقير؟!

كانت حواديت جدتى من لون لا يمكن فهمه أحيانا.. رغم ذلك، كان غموض الحواديت يلهب أفكارى بسعادة من يوشك أن يعثر على اكتشاف هائل.

وقد تم الاكتشاف فعلا، وإن لم أكن صاحبه، اكتشفت أمى غياب صدر الدجاجة من الثلاجة، عرفت من البداية أن القط هو الذى التهمها.. قالت لنفسها:

ـ معقول القط يقدر يفتح الثلاجة؟!

سألتنى فقلت لها إننى استيقظت فى أثناء الليل فوجدت نفسى جائعا ففتحت الثلاجة وأكلتها.

قالت أمي: احلف انك أكلتها.

قلت لها: حدثنا مدرس الدين أن الحلف حرام.

قالت: أكلها القط.. تسرق طعام أبيك وتطعمه للقط.. أنت مجنون بلا شك.. انتظر حتى يحضر أبوك.. اسمع.. كلمة أخيرة.. أنا أو القط فى البيت!

كانت أمى سيدة مدهشة.

وكانت أمًا عظيمة بنفس الدرجة.. كانت سيدة من أصحاب التقاليد.. وكانت لها تقاليد فى كل شىء.. فى الأثاث والطعام والحديث والتعبير عن المشاعر والجلوس وكل شيء.. وكانت تحبنى حبا عميقا بوصفى ابنها الوحيد الذى انفردت به بين ثلاث بنات، ورغم ذلك كله فقد نظرت إلى حادث اختفاء الدجاجة كجريمتين مرتبطتين.. تماما مثل السرقة فى أثناء الليل مع استخدام سلاح.

نحن هنا أمام ظرف مشدد.. الليل واستخدام سلاح.

كان ما وقع للدجاجة يبدو فى نظر أمى خرقا لتقاليد الأسرة.. وكانت هذه الجريمة فى بيتنا تشبه الخيانة العظمى.

بحثت عن القط لأقول له إن موقفنا قد تدهور، ولكننى لم أجده.. اختفى القط تماما وتركنى أواجه مصيرى وحدى.

كانت أمى قد ألقت بتهديدها الراعب، وقالت إنها ستحكى كل شىء لأبى.

كان أبى رجلا مثلى ويمكن التفاهم دائما بين رجلين، أما أمى فكانت من جنس آخر، ومن هنا فإن التفاهم معها كان يستحيل أحيانا.

جاء أبى أخيرا.. صمت البيت وهدأت حركته احتراما، وألقت أمى القنبلة قبل أن يخلع أبى ملابسه.

قالت له: ابنك سرق طعامك وأعطاه للقط.

كنت أتصنت فى غرفتى.

لم أكن خائفا.. خيل إلىّ أن أبى لن يهتم لأن الأمر يتعلق بطعامه هو، كان أبى رجلا كريما لم أعرف أكرم منه غير خالى علي، وكان أخطر ما يهمه هو النجاح فى المدرسة.. أما بعد ذلك فلم يكن هناك شىء يعنيه أو يحسب له حسابا.

استمع أبى لأمى وقال لها:

ـ الولد سيمتحن بعد أيام.. لا تزعجيه الآن حتى لا يؤثر هذا فى امتحانه.

قالت أمي: القط أكل طعامك!

قال أبي: ولا تزعجينى أيضا.. أليس هناك طبق من الفول.. أو قطعة من الجبن.. على أى حال.. لست جائعا.

هتفت داخلى بحياة أبى.. وقفز القط من فوق ظهر الدولاب وكان يختبئ فيه.

قال لى وهو يهبط برشاقة أعظم راقصى الباليه:

ـ هل زال الخطر؟

قلت له: رأيى أن تختفى فورا.. إن أمى ستذبحك لو رأتك الآن.. لقد هُزِمَتْ أمى مرتين: مرة منى ومرة من أبى، ولا ريب أنها تدبر لك المقصلة.

قال القط: يا ساتر.. تذبحون مخلوقا لأنه أكل شيئا من نفسه.

اقترب صوت أقدام أمى.. فقفز القط وعاد إلى مخبئه فوق الدولاب.

دخلت أمى الغرفة.

مَثّلْتُ دور طالب مجتهد يذاكر.. رحت أقرأ فى كتاب المدرسة وأنا أخشى أن يصدر القط صوتا من فوق مخبئه فيدل عليه.. قالت أمى:

ـ بتذاكر ولا لأ؟

قلت لها: بذاكر.

قالت: سيب المذاكرة وقوم اتعشى مع أبيك.. كانت أمى تهتم بشىء أساسى هو الطعام.. كان يهمها فى المقام الأول أن آكل.. وكان أبى يهتم بشىء جوهرى هو النجاح.. كان يهمه فى المقام الأول أن أذاكر وأنجح.. أما جدتى فلم تكن تهتم بشيء.. كانت تهتم بشخصى.

لم تكن تضغط علىّ لآكل مثلما تفعل أمى.. ولا كانت تضغط لأذاكر مثلما يفعل أبى.

لم تكن تضغط عليّ.. كانت تحبنى كما أنا.

وكان هذا يكفينى تماما.

رغم مرور الأزمة دون تفاقم.. ورغم استمتاعى فى الظاهر بهدوء نسبى نتيجة اقتراب الامتحان.. فقد أضيف هَمٌ جديد إلى هَمِّ الامتحان.

ذلك أن وجود القطـ بات مهددا فى البيت بعد أن توعدته أمى بالويل والثبور وعظائم الأمور.

كنت أعرف أمى.

لم تكن مثل الدول الصغرى التى تتكلم كثيرا وتعتبر أنها قد فعلت.

لم يكن الكلام عندها يقوم مقام الفعل.

كانت أمى دولة كبرى.. وكان كلامها يتحول سريعا إلى فعل.. ويبدو أن ذكاء القط أو ثقافته أسلمته لنفس الإحساس.. فقد كان يختفى تماما طالما أن أمى موجودة، فإذا دخلت غرفتها وأغلقت الباب ظهر،وفى عينيه قلق.

كنا معا.. ننتظر معجزتين.

معجزة نجاحى.. ومعجزة إقناع أمى ببقائه.

وكانت كل معجزة منهما تحتاج إلى تجنيد كل قوى الدعاء فى مملكتنا الصغيرة.

وقلت لجدتي: ادعى يا تيته إنِّى أنجح.. وإن القط يفضل قاعد معانا.

ضحكت جدتى وهى تحرك حبات مسبحتها الصندل وهى تتمتم بتسبيحاتها، وقالت: يا واد ما تضحكنيش وانا بذكر ربنا..!!

★ ★ ★

«الله لطيف بعباده».

الكلمة مكتوبة على طبق عربى جميل.. كتبت فى تركيا، وربما كان الطبق أثريا.. على أن هذا كله ليس مهما.. المهم أن الكلمة موجودة دائما.. ومعلقة فى فضاء غرفة مكتبى.

لم أستطع أن أقاوم شراء الطبق أول مرة رأيته فيها وكان عمرى أربعين سنة.

إن اللطف الإلهى بالعباد يقين يحسه قلبى منذ الطفولة.

«الله لطيف بعباده».

ظهرت المعجزة الأولى بعد امتحانى بأيام.. لست أعرف كيف نجحت.. المدهش أن الصفحات التى اخترتها من كتب الدراسة لأقرأها ـ طبقا لنصيحة القط ـ كانت هى نفسها المواضع التى جاءت منها أسئلة الامتحان.

سألنى القط: ما هى أخبارك؟

قلت له: وقعت المعجزة الأولى.

قال: استمر فى الصلاة طلبا للمعجزة الثانية.

لم تنتظر المعجزة طويلا لتقع.

كانت أمى تكره الحشرات المنزلية كالصراصير، فى نفس الوقت الذى تخاف فيه من الفئران.

وكانت تشن على الصراصير حربا لا هوادة فيها، ولم يكن أى صرصار يجرؤ على الظهور فى بيتنا.

إنه يباد قبل أن يكتشف أنه أخطأ المنزل.

من هنا يمكن تصور الفزع الذى أصاب أمى حين ظهر فأر صغير، وانسل يجرى كالبرق نحو إحدى الغرف.

جن جنون أمى.

صعدت على كرسى وصرخت إن فى البيت فأرا.

اندفعنا جميعا نحو الغرفة ووقفنا على بابها وقد هزنا الانفعال.

فى البداية استولى الارتباك والرعب على الساحة، ثم وقف الجميع مسمرين فى أماكنهم.

فى هذه اللحظة التاريخية.. ظهر القط.

تماما مثل شجيع السينما الذى يظهر فى الوقت المناسب، فيزيح الناس ثم يدخل وهو يمشى على مهل.. بعدها يواجه رئيس العصابة وحده، قائلا من بين أسنانه:

ـ دعوا الوغد لى.

كان القط يمشى على مهل، كأن الموقف سلام لا حرب.

دخل القط الغرفة التى دخلها الفأر قبله.

بعد ثوان كان يخرج من الغرفة وهو يحمل الفأر الصغير بين أسنانه.

صفقت الجموع للزعيم الجديد الذى ولد من حاجة الجماهير إليه.

صار القط بطلا.

فتح القط فمه فسقط الفأر منه وعاد يجرى.. قفز القط قفزتين رشيقتين

صار بعدهما أمام الفأر، وضع يده على ظهر الفأر فتجمد الفأر من الرعب.. غرس القط أنيابه فى لحم الفأر فأصدر الفأر صوتا مذعورا يشبه الأنين اليائس.

فجأة ترك القط الفأر ورفع يده عنه وأشاح بوجهه كأنه لا يراه.. لم يصدق الفأر ما حدث.. نظر إلى القط فوجده لا ينظر إليه.. ما دام لا ينظر إليه فهو لا



يراه.. ها هى النجاة تدرك الفأر مثل نعمة رائعة.. انطلق الفأر يجرى حتى وصل إلى نهاية الغرفة.

ظل القط يبدى لامبالاة مسرحية عجيبة، حتى إذا اقترب الفأر من باب النجاة كان القط قد قفز وصار أمامه.. ثم بخ القط.

تحول القط من قط وديع إلى نمر مفترس.

تقوس ظهره ونفش جلده كله ورفع ذيله.. فوجئ الفأر أنه أمام شبح.. خيل إلى الفأر أنه يمر بكابوس مروع.. لم تكن هناك أية علاقة بين هذا النمر المقوس الظهر والقط الوديع.. كان القط يبخ.. هو صوت يشبه تماما صوت النمور حين تغضب.. إن الصوت ليس عاليا.. ورغم أنه يأتى من قرار الروح إلا أنه يتحول عندئذ إلى جواب يستدعى كل مرعبات الحياة ومخاطرها.

توقف الفأر مشلولا أمام القط.. ضربه القط ضربتين سريعتين على ظهره.

كل ضربة منهما كانت تترك فى ظهر الفأر ما تتركه ضربات السياط فى ظهر المحكوم عليه بالجلد.. خيوطا طويلة حمراء ينعقد الدم عند أطرافها.

* * *

كانت أمى تشهد الصراع بين القط والفأر.. لم يكن صراعا متكافئا أو نصف متكافئ.

نحن أمام مذبحة ظهرت فيها قسوة القط وحيوانيته بجلاء.. كان القط يعذب الفأر عذابا نفسيا.. إنه يضربه ضربا هينا غير موجع، ثم يشيح عنه

ببصره فيجرى الفأر، حتى إذا ظن أنه نجا أدركه القط وعاد يشله.. ثم تتوالى المشاهد.. أمام جمهور يتأمل بطولة البطل.. وهى بطولة بلغ من قسوتها أن مشاعر الجماهير المتحمسة الغاضبة الخائفة ضد الفأر، لم تلبث أن بدأت تتحول تدريجيا إلى التعاطف مع الفأر.

حين كاد يقع على المسرح ما يسمونه انكسار الذروة وعودتها إلى القاع.

حين كاد يحدث هذا، وأدرك القط أن جمهور الحلبة يوشك أن يهتف ضده.. أمسك القط ضحيته بين أسنانه وانسل هاربا به خارج الغرفة.

ثم عاد يمسح فمه وشواربه بيده.

طارت قصة الفأر وسط المنزل الذى نعيش فيه والحى الذى نسكنه..وصار القط بطلا يستوقفه الأطفال ويطلبون توقيعه على الأتوجراف.. ولم يعد القط يجد وقتا يقضيه معى، وصار يقضى معظم أوقاته يتكلم فى التليفزيون والإذاعة..و يرد على تحية الجماهير.

على أن أهم ما فى الموضوع كله، أن أمى قررت فجأة أن وجود القط فى البيت نعمة.

وأن هذا القط بطل حقيقى.. وأن موقعة الفأر الشهيرة كانت موقعة لا تقل عن أية موقعة عسكرية.

نجح القط أن يقنع أمى ببطولته.. وخيل إلىّ وأنا خبير به أنّ هناك شيئا يشبه رائحة السمك فى الموضوع.. خيل إلىّ أن القط خدع أمى.. لكننى لم أعرف كيف؟

أخيرا خلوت به.

قلت له: لم أرك منذ زمن.

قال: للبطولة أعباء.

قلت له:كانت مفاجأة ظهور الفأر فى البيت فجأة.

قال القط: هذا فأر كومبارس، اتفقت معه على القيام بهذه التمثيلية أمام أمك حتى نقنعها بأهمية وجودى فى البيت.

قلت للقط:لكنك مزقت الفأر تمزيقا.

قال: كان هذا تمثيلا لا تمزيقا.. ماذا نفعل.. أكل العيش يحتاج إلى بطولة، والبطولة تحتاج إلى ألاعيب مسرحية.

أرأيت كيف أجاد الفأر تمثيل دوره.

قلت له: مالت مشاعرى نحوه بالعطف.

قال القط: هذا هو عيب المسرحية الوحيد.

انكسرت الذروة، ولكننى لحقتها وسحبت الفأر خارج المسرح حيث قال لى:

ـ لقد كدت تقتلنى.

قلت له: معلهش.. كان الدور يحتاج إلى عنف. ثم أعطيته قطعة من الجبن وأطلقت سراحه.

قلت للقط: كان أجر الفأر قطعة من الجبن.. ألم تظلمه قليلا؟

قال القط: قلت لك إن هذا الفأر نكرة.. لم يظهر قبل ذلك فى دور رئيسى أو نصف رئيسى.

كان دوره معى هو البطولة، كان هو الضحية الضعيفة.. وهذا أول دور له فى البطولة.

قلت له: الجمهور ينظر إليك كبطل.. ماذا لو ظهر فأر حقيقى شرب من صدر أمه وهاجمك.

قال القط: ربنا يستر.. دعنا من المخاوف الآن ولنحتفل معا بالنصر التمثيلى الذى شهده قومك.

قلت له: ماذا تريد؟

قال : سئمت من اللحم كل يوم بعد معركة الفأر.. أريد أن آكل طبقا من السمك المشوى.. ولا بأس ببعض الجمبرى.. مع سمك السالمون المخلل.. ولتكن الشوربة شوربة سمك أيضًا.

هيه..ماذا قلت؟

لم أقل للقط شيئا.

كان القط يحلم كعادته أنه يجلس فى مطعم مكسيم.. أو يجلس فى أبى قير على البحر وقد امتدت أمامه أطباق الأسماك والجمبرى.. وتصاعد من البحر عطره.. أو زفارته..

قال مدرس الدين فى السنة التالية وهو يشير إليّ.. أجب عن السؤال التالى:

ـ لماذا خلقنا الله؟

قلت له: لعبادته.

قال: اذكر الآية.

قلت:«وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين».

قاطعنى المدرس: خطأ.. قرأت الآية خطأ.. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. الجن قبل الإنس.. خلقهم قبل الإنس.. اجلس يا أفندى..

جلست وفى نفسى سؤال يتردد.. سؤال خشيت أن أسأله للمدرس:

ـ لماذا خلق الله القطط؟

خشيت أن يعتقد المدرس أننى قد جننت.. قلت لنفسى أسأل صاحب الاختصاص الأصلى.

قلت للقط: أجب عن السؤال التالي: لماذا خلقك الله؟

قال القط: هناك ألف إجابة وإجابة على سؤالك.. بأى واحدة تحب أن نبدأ؟

ـ قلت له: ابدأ بما تحب.

قال: تعتقد أمك أن الله قد خلقنى لآكل الفئران وأحميها منها.. أنا حارس عند والدتك إن صح هذا التعبير.. حارس العزبة كما تقولون.. ولا عزبة هناك ولا ضيعة ولا يحزنون.

بالنسبة لك تعتقد أن الله قد خلقنى قطا ليلعب الأطفال الساذجون مثلك بصورة مصغرة لنمر.. أما الحشرات والفئران فتعتقد أن الله خلقنا لتدميرها.. أما قدماء المصريين فاعتقدوا أننا آلهة معبودة، للأسف عبدونا، وكان مركز عبادتنا هو تل بسطة.

تأمل تغفيل أجدادك الوثنيين.. لقد كنا فتنة لهم دون أن يعرفوا.. لا تقل لى إننا مذنبون، نحن نبرأ منهم.

أما العلماء اليوم فيرون فى وجودنا لونا من ألوان التوازن الكونى.. فلو هلكت القطط فى الأرض، لأكلتكم الفئران.. ولو هلكت الفئران كلها لماتت القطط جوعا.

المسألة معقدة كما ترى.

قلت له: لماذا لا تكمل كلامك؟

قال القط: لماذا لا تكمل أنت سؤالك.... أنت تسألنى لماذا خلقك الله.. المفروض أن تكمل السؤال وتقول:

ـ لماذا خلقك الله رغم أنه ليس فى حاجة إليك.. إن السؤال بهذا الشكل ينطبق على جميع الخلائق.

لماذا خلق الله الخلائق وهو فى غير حاجة إليها.

الجواب: إنه خلقها لأنها فى حاجة إليه، خلقها عطاء منه وتكرما... هذا هو سبب الخلق.

لقد انصرفت مشيئة الله تعالى إلى الخلق.

فاض عطاؤه وفاضت رحمته على العدم.

كان الكون عدمًا وكنت جزءا من العدم. وكان الكون كله ظلمة وكنت جزءا من الظلمة.

ثم أنارنا ظهور أمر الحق.

أصدر الله تعالى أمره إلى العدم.

قال «كن» وهى كلمة من حرفين. سمع العدم أمر الله تعالى رغم أنه بلا أذن ولا سمع. استحى العدم حين كلمه الله تعالى فصار وجودا يموج بالحركة.

لقد همس الحق فى أذن الوردة من قبل أن تخلق الوردة فجعلها تبتسم بالعطر.. وتحدث إلى الحجر فكان منه عقيق المنجم.. وتلا آية على الجسم فأصبح روحا.. وكلم الشمس فأضاءت بالإشراق.. ثم عاد وألقى فى سمعها بكلمة رهيبة فوقع على وجه الشمس مائة كسوف.

أى قول ألقاه الحق فى سمع السحاب، فصب من أعينه الدموع؟ وما الذى تلاه الحق على سمع الأرض فصارت مراقبة ولزمت الصمت؟

لا أحد يدرى.

كل ما ندريه من الموقف كان موقف عطاء إلهى شامل من العدم إلى الدخان إلى الماء إلى بلايين النجوم إلى قطعة الصلصال إلى الخلية الحية

إلى بلايين الأشكال من الجن والإنس والقطط والكلاب والنبات والجماد.

قلت له: لا تقل لى إن هذا كله كلامك.

قال القط: إيتونى بأعظم آلات الغناء، واستدعوا روح الموسيقى من قلب الكون، ودعونى أتغنى بأشعار سيدنا ومولانا جلال الدين الرومى فى المثنوى المعنوى.

كيف يخرج من قلب الإنسان شغله الأول؟ وكيف يفترق عن فؤاده أو ل حب؟

لقد كنت أنا أيضا من سكارى هذه الخمر، وكنت فى حضرته من العشاق.

وإننى قد استقبلت الحياة على محبته، كما أن عشقه كان قد غرس فى روحى.

ولقد لقيت من الزمان أياما طيبة. كما أننى احتسيت مياه الرحمة إبان ربيعى.

ألم تكن يد فضله هى التى غرستنى؟ أليس هو الذى قد أخرجنى من العدم؟

وما أكثر ما كنت قد شهدت من ألطافه. ولكم تجولت فى بساتين رضاه.

إنه كان يضع فوق رأسى يد رحمته، وكم كان يفيض ينابيع اللطف منها .

وفى وقت طفولتى، حينما كنت رضيعا، من ذا الذى كان يهز مهدى.. إنه هو.

وهل كان لى حليب أحتسيه غير حليبه؟ ومن الذى رعانى غير تدبيره.

وكيف يمكن أن تنفصل عن المرء تلك المحبة التى دخلت كيانه مع الحليب؟!

مرت الأيام وكبر القط.

ازداد رشاقة وجمالا وأنانية.. إنه يقفز من أقصى الغرفة إلى أقصاها كسهمٍ ضوئى ينطلق بلا صوت.. وهو يمارس ألوانا من الشقاوة ويمر وسط الأكواب الزجاجية والأطباق دون أن يلمسها أو يكسر منها شيئا.

وكثيرا ما تأملت ليونة جسده..وكنت ألاحظ أنه يقفز فى الهواء قفزة خطيرة تكون أقدامه لأعلى وظهره لأسفل، ولكنه قبل أن يصل إلى الأرض، يعتدل ويهبط على الوسائد المدهشة فى أقدامه الأربعة.. وقلت لنفسي:

ـ ماذا لو جربت أن ألقيه بنفسى بعد أن أمسكه من أقدامه الأربعة وظهره إلى الأرض.

وفعلت هذا أكثر من مرة.

وفى كل مرة، كان القط يعتدل فى الهواء ويهبط هبوطا طبيعيا على أقدامه..

وكررت اللعبة فمد يده وخربشنى.

قلت له: ماذا أصابك؟

قال: ماذا أصابك أنت.. هل جننت؟

قلت له: هذه تجربة علمية أيها الأحمق، أحاول عن طريقها اكتشاف سر من أسرار القطط.

سألنى: أى سر؟

قلت: السر الذى يجعلك تعتدل فى الهواء مهما حدث لتنزل سالما فوق أقدامك.

قال: ليس هناك سر سوى أننى قط.

فاجأنى الجواب ببساطته، وأحسست أن القط يخفى عنى سر رشاقته لأسباب أنانية.

وفى المرة الوحيدة التى حاولت فيها تقليد القط بالنزول من فوق السرير وظهرى إلى الأرض مع محاولة الاعتدال قبل الهبوط إلى الأرض، فى هذه المرة.. أوشكت النتيجة أن تقصم ظهري، ولم أعد أحاول تقليد القط فى رشاقته، وأدركت أن لكل مخلوق امتيازا خاصا لا تعرفه بقية المخلوقات.

لم تكن الرشاقة هى وحدها امتياز القط.. كشف مرور الأيام عن امتياز آخر.

كان القط صيادا حاذقا.

إن أى شيء يتحرك، سواء كان ظاهرا أو خفيا، يثير على الفور اهتمام القط ويدفعه إلى الهجوم عليه، وقد جربت أن أحرك أصبعى تحت الملاءة مثلا، فإذا القط يندفع وينقض على أصبعى ويقبض عليه بمخالبه ثم يقرمه بفمه.

وقد تخصص القط فى صيد الصراصير.

كانت الصراصير فى بيتنا شيئا نادر الظهور، إن نظافة أمى وإشرافها

الدائم على البيت لم تكن تسمح لأى صرصور بالحياة، ولكن منور البيت كان يضم مجموعة من الصراصير التى تجرأ أحدها يوما ودخل بيتنا.

لم يكد يجرى على أرض الصالة حتى كان القط فوق رأسه.. ضربه القط ضربتين سريعتين بيده فتوقف الصرصور ذاهلا.

ترك القط الصرصور فجرى هذا سريعا جهة اليسار، قبل أن يغيب تحت الكنبة كان القط قد لحقه ووضع يده عليه.

غرس القط مخالبه فى الصرصور.. بعدها تلاشى الصرصور ومسح القط شواربه.

كان القط يمارس هوايته فى الصيد برشاقة بالغة.. وبدا لى مثل لورد إنجليزى تقليدى خرج لصيد الثعالب.. فلم تنجح الرحلة رغم إثارتها فى تبديد سأمه الذى صار سمة مميزة له.

أطفأت أمى نور الغرفة وقالت بلهجة آمرة:

ـ يجب أن تنام الآن.

لم أكن أريد أن أنام.. كنت أرتعش بخوف داخلى لا أريد أن أفصح عنه.. شاهدت فيلما فى السينما عن الغابة، وكانت الثعابين الضخمة تتسلل من بين أشجار الغابة المظلمة، وكان إطفاء نور الغرفة وغرقها فى الظلام كافيا ليبعث صورة الثعابين فى عقلى.. وجلست فى الفراش بعد أن أطفأت أمى نور الغرفة.

خيل إلىّ أنى سمعت صوتا ما.

صوت فحيح ما.

نظرت فى الظلام حولى فلم أر شيئا.

قفزت نحو النور وأضأته.. لم يكن هناك سوى القط..كان ينظر إلىّ مدهوشا.. وضاقت عيناه رويدا من الضوء القوى.

قال لى: ماذا حدث؟

قلت له: أنا خائف.. إن صور الثعابين تتراءى لى.

قال وهو يلحس يده ويمسح وجهه وشواربه بها: لا تخف.. إن الثعابين لا تقترب من مكان فيه قط.

لم أصدقه فى البداية.

ظننت أنه يزهو كعادته.. ولم أعرف حقيقة قوله إلا بعد أيام.. اشتريت لعبة من البلاستيك على شكل ثعبان.. وحركتها أمامه فتغير القط تماما.

تقوّس ظهره، ونفش ذيله، وبرزت مخالبه، وراح يبخ.. تماما مثلما تبخ النمور حين تقرر الهجوم الصاعق.

مد القط يده وانهال ضربا على الثعبان البلاستيك.. كان يضرب بسرعة البرق ثم يرفع يده بنفس السرعة.

وكان يقفز فجأة جهة اليسار ويوجه إلى الثعبان ضربتين، ثم يقفز شمالا ويضرب، ثم يغير مكانه ويضرب.. وفى كل مرة كان الضرب يصيب الثعبان من حيث لا يحتسب.. بعد ثوان كان رأس الثعبان اللعبة ممزقا إلى قطع صغيرة.

قلت للقط: أيها الأحمق.. ماذا فعلت؟!.. لقد كنت أمزح معك.. لقد أفسدت اللعبة.

قال القط: لا تلعب معى بعد ذلك بالثعابين.. أنت لا تعرف.

قلت له: لا أعرف ماذا؟

قال : أنت لا تعرف عداوتنا للثعابين.. من بين جميع المخلوقات التى خلقها الله، ليس للثعبان من كفء سوى القطط.. إن العداء بيننا سحيق.

زاد احترامى للقط.. وزاد إحساسى بالأمن وهو ينام فوق أقدامى.

قبل أن أربى القط.. لم أكن أمد قدمى فى الفراش خوفا من تسلل ثعبان من أشجار الغابة نحوى فى الحلم.

ثم جاء القط ورقد فوق أقدامى.. وقلت أمد أقدامى فلا خوف الآن من غدر الغابة.. ولا خوف من مرعبات الأحلام.

إن حارسا عظيما يقف على أبواب الغابة.

☆ ☆ ☆

حارسا بلا اسم.. أو حارسا له أكثر من اسم.

ناديت القط يوما فلم يرد... سألته: ماذا أصابك؟.. لماذا لا ترد؟!

قال القط: ليس هذا اسمى.

قلت له: إن العائلة كلها تعرفك به.

قال: ألا تعرف أن للقطط أكثر من اسم.. ألم تقرأ قصيدة «ت.اس. اليوت» فى ذلك.

قلت له: لا .. حدثنى عنها.

قال القط: أى جهل!

اسمع.. سأحدثك عن مضمون القصيدة بسرعة.. لعلك تميل إلى اعتبارى مجنونا لو حدثتك أن لكل قط ثلاثة أسماء مختلفة.

فى البداية.

هناك اسمه الذى تطلقه عليه العائلة وتعرفه به.

وهناك اسم آخر يطلقه على القط صاحب القط الأثير.

اسم فيه كبرياء.. اسم غريب.

وهناك اسم ثالث.. اسم يصعب على الذهن البشرى أن يكتشف أسراره أو يهتدى لحل طلاسمه.

اسم يعرفه القط بنفسه.. ولكنه يعرفه كسرٍ لا يقوله أبدا.

سرٌ لا يفشه أبداً.

وعندما تجد قطا يجلس ساهما قد استغرق فى ذاته.

فثق أنه يفكر فى اسمه الخاص الذى لا يعرفه البشر.. اسمه السرى.

حاولت أن أعرف اسم القط الخاص فلم أفلح.

وعدت أن أقدم إليه كل ما يشتهيه من أسماك وطيور ولحم ولكنه كان يساوم على اسمه الثانى.. أما اسمه الثالث.. اسمه السري، فقد رفض أن يحدثنى عنه، فلما ألححت عليه طويلا قال إنه نسيه.

ووعد أن يقوله لى عندما يتذكره.

وطوال الفترة التى عاشها معى لم يتذكره أبدا.. أو هكذا زعم، وظل يحتفظ بسره داخل قلبه الموصد.

ثم وقع الحادث.

كيف وقع؟.. لست أدرى.. ولعل النعومة التى تم بها كانت هى الستار الذى أخفاه حتى وقع.

لم أكن أتصور أن ينعطف قلب القط، أو تتحرك إرادته نحو الحب.

كنت أحب ابنة الجيران.. وكان للقط موقف واضح من الحب، حدثته يوما أننى أحب.

لم يحفل بما قلت.

قلت له: إننى عاشق.

صمت القط لحظة ثم قال ببرود: أعظم أنواع العشق عشقك لنفسك.

قلت للقط: هذا جوهر الأنانية.

قال: بل جوهر الحكمة.. أنسيت أننى حيوان.

قلت له: أنت حيوان.

قال القط: أنا حيوان وأنت طفل لم تكبر بعد.

قلت له: أنت لا تعرف كم أحبها.. لقد صار وجودها هو العطر الوحيد فى حياتى.. صار هو المعنى.

قال القط: الحب البشرى طفولة قلب، هو حماقة إذا تجاوز حدوده.. وإنما يصير نضجا وحكمة إذا كنت تحب المصور لا الصورة.. وترى كل ما تراه من جمال بشرى أثرا من آثار إبداعه.

قلت له: لست أفهمك.

قال: ستفهم عندما تكبر.

قلت له: أنا كبير لأننى أحب.

قال: هذا أول وهم ساقه الحب إليك وأقنعك به.

قلت له: كيف تنكر الحب وأنا أحبك؟!

قال: نحن حلفاء أو أصدقاء.. فلا تخلط بين الصداقة والحب، ولا تخلط بين الإعجاب والحب.. ولا تخلط بين الحاجة إلى الحب والحب فى ذاته.

إن الحب طاقة هائلة.. وتوظيف هذه الطاقة فى مشروع غير مضمون النتائج ليس سوى حماقة.

الأفضل أن توظفها فى خدمة نفسك.

قلت له: ماذا تعنى؟

قال: أعنى أنك ستحب خلال السنوات القادمة عشرات الوجوه، وعشرات الصور.. وكلما تقدم بك العمر ستحب أكثر.

قلت له بإصرار غاضب: لن أحب أحدا بعدها!

قال القط: أنت تكمل كلامى..هذا ما ستقوله فى كل مرة تحب فيها.. ستقسم لها على صدقك بضوء القمر.. أنت تكذب.. لاحظ أن القمر من المخلوقات التى لا تثبت على حال.. من بدر إلى هلال إلى لا شيء.. أنت تقسم لها على حبك.. أنت تكذب.

أو لعلك صادق مؤقتا.. والصدق المؤقت لون من ألوان الكذب. هو صدق فى لحظة زمنية ما.. وهو كذب فى لحظة زمنية أخرى.

قلت له مهموما: هل أفهم من قولك أن حبى لابنة الجيران سوف ينتهى ذات يوم.. هل تلمح إلى أننى لست مخلصا.

قال القط: دعنا من التلميح.. لننتقل إلى التصريح.. إننى أنصحك ألا تكون مخلصا.. لم تزل صغيرا.. ولم يزل قلبك تستهويه الصور.. والصور تتغير.. والتعلق بالتغير يعنى التغير.. إذا كان كل شيء يتغير.. ألا ترى أن الثبات على حبك لذاتك أفضل من قلق الرحيل بين حب له ثبات القمر؟

فكرت قليلا فى مضمون كلماته وقلت له:

- أنت نفعى وأنانى.. هذه فكرة نفعية بحتة، وهى فكرة تخلو من أى نبل حقيقى.

كيف تكون حريرى الملمس، صوفى الباطن، وفيلسوفا وحكيما وأنانيا ونفعيا فى نفس الوقت؟!

إننى لم أعد أفهمك.

قال القط وهو يلحس يده ويسوى بها شواربه:

ـ أعترف أن مذهبى هو النفعية.. وأعترف أننى متناقض.ولكن ماذا أفعل.. هذه حقيقتى.. ثم قل لى بربك.. أى عيب تراه فى النفعية.. أليست النفعية هى المسئولة عن قيام المدنية الأمريكية والمجتمع الأمريكي؟.. إن هناك دولة نفعية تحكم العالم دون أن تلقى بالاً لرغباته، على أساس أنها تعرف ما فيه خير العالم أكثر مما يعرفه العالم.

كيف تقاوم القطط هذا النموذج الناجح الذى تقدمه أمريكا؟

كيف تقاوم القطط إذا كان البشر لا يقاومون؟!

صمت القط وقال فجأة:

ـ سئمت من الكلام فى السياسة.

سألت: عندكم سياسة مثلنا؟

قال القط: طبعا.. إن البوليتيكا ليست وقفا على البشر وحدهم.. عندنا بوليتيكا مثلكم وأكثر.. هل ترى الخرابة المجاورة.. إنها هى المسرح.. إن هناك من يحاول أن يصير زعيما فيها ولكننى أرقب الموقف.

إن اللحظة المناسبة لم تقبل بعد.

⁂

لم أفهم.

لم أعرف.

لم أتصور أن ما حدث يمكن أن يحدث.

كانت كل الدلائل تشير إلى كراهية القط للحب..وللجنس القططى الآخر.

ثم جاء الشتاء.

كان القط قد بلغ فى القطط مبلغ الرجال.. ولاحظت يوما أنه يتأمل قطة بيضاء فى الخرابة المجاورة.

كانت القطة هزيلة عجفاء.. ولم يكن ذيلها جميلا، وكانت إحدى أذنيها أصغر قليلا من الأذن الأخرى.

ورغم كل عيوبها فقد وقع القط فى هواها.

سألته يوما: هل تعجبك هذه القطة الهزيلة؟

قال: ليست هزيلة!

قلت له: إن إحدى أذنيها...

قاطعنى القط قبل أن أستطرد.. لماذا يحاول البشر الحكم على القطط قبل أن يحكموا على أنفسهم؟.. لماذا تخرج القشة من عين زميلك وتنسى الخشبة فى عينيك؟.. لماذا لا تنظر إلى أذنيك أنت فى نفس الوقت الذى تستخرج فيه القطط الفطساء من أذنى القطة.. كان القط يهاجمنى.

وأدركت حساسية الموضوع بالنسبة إليه ولم أعد إلى الحديث فيه.. ثم جاءت ليلة شتائية قاسية.

خرج القط إلى الشرفة وراح ينونو نونوة متصلة صارخة تقول:

ـ داود.. داوود... داوووووود.

لم أكن قد سمعته من قبل يموء بهذا الشكل.

كان يبدو أقرب إلى الصراخ أو العواء منه إلى المواء.

سألته: ما هذه الضجة التى تحدثها؟.. ستستيقظ أمى وتطردك خارج البيت.

سكت القط فظننت أنه خاف من أمى، ولكنه عاد يموء نفس المواء الغريب:

- داود..داوود.

سألته: من تنادي؟

قال: داود.. ألا تعرف داود؟

تذكرت أن داود هو النبى الذى كان يعرف منطق الطير والحيوان.. أى مأزق كان القط يمر به حتى ليحدث نبيا مات منذ آلاف السنين.. لم أعرف لطفولتى محنة القط.

سألته مشفقا:

- لماذا تموء هذا المواء؟.. هل أنت محموم؟

قال القط: نعم.

قلت له: بعد الشر!!

قال القط: لا شر هناك.. هى حمى الحب!

عاد القط يموء بصوت أيقظ الجيران وأيقظ أمى.

قالت أمي: افتح الباب للقط ودعه يخرج.

قاومت فى البداية.

سيضيع لو خرج.. من يدرى أى هلاك ينتظره من مفاجآت الحياة.

كنت أريد أن أحتفظ بالقط فى الجزيرة الوادعة التى نعيش عليها معا

لكن القط كان يطيع نداءً آمرًا آسرًا لا يستطيع مقاومته.. انفتح الباب نصف فتحة.

اندفع القط كالسهم مارقًا نحو الخارج.

صرخت عليه: لماذا تذهب؟!

التفت قبل أن يمضى وقال: لن تفهم الآن.. ربما فهمت عندما تكبر.

عدت أقول له: أين تذهب؟

قال القط: انصت قليلا واستمع.. هل تسمع هذا النداء.. إننى مدفوع لتلبيته.. ليس الأمر بيدى.

قلت للقط: أى نداء؟!.. توقف وحدثنى!!

لم يلتفت.

لم يعبأ.

كان يهبط السلالم بسرعة تشبه الطيران.. وجريت نحو غرفتى ودخلت الشرفة.

صح ما توقعته.

كانت القطة البيضاء النحيلة تنتظره فى الخرابة، لم يكد يظهر حتى اندفعت هاربة منه فانطلق يعدو وراءها. وغابا معا فى ظلام البيوت.

***

أوجعنى قلبى عليه.

ثم شاهدته بعد ستة أشهر وقد جلس متسلطنا فى الخرابة فوق تل من الصناديق الفارغة. وتحت صندوق من الصناديق كانت زوجته البيضاء النحيلة ترقد فى وداعة وهى ترضع ست قطيطات صغيرة ما زالت مغمضة العينين.

وكان القط هزيلا قد مرمطته الأيام، ولكن نظرة من الرضا الجميل كانت تطل من عينيه وهو يلحس يده ويسوى بها شواربه.

كان واضحا أنه قد صار زعيما للخرابة وبسط سيادته عليها.. ناديته باسمه فلم يلتفت.. اكتفى بثنى أذنه نحو مصدر الصوت.. ورحت أفكر فى اسمه السرى الخاص.. لو كنت أعرفه لناديته به.

وربما كان يلتفت.



دار الشروق

حوار بين طفل ساذج و... قط مثقف!

في هذا الكتاب الجميل يحدثنا الكاتب الكبير أحمد بهجت عن تجربة طفل ساذج مع قط مثقف، حيث نتعلم من حوارهما الرحمة، والحب، والتصوف، وأيضًا أسرار القطط.